العلاقات بين المسلمين والروم
في عصر أبي بكر (١١ - ١٣هـ / ٦٣٢-٦٣٤م)

د/ عبد الرحمن أحمد سالم

قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

تمثل الفترة التي قضاها الخليفة أبو بكر الصديق في الحكم[1] - رغم أنها لم تتجاوز العامين إلا ببضعة أشهر - مرحلة بالغة الخطورة في التاريخ الطويل لعلاقات المسلمين بالروم (البيزنطيين). ويمكننا أن نقول باطمئنان: إن سياسة المسلمين تجاه الروم في عصر عمر بن الخطاب (١٣-٢٣هـ / ٦٣٤ - ٦٤٤م) - بكل ما ترتب عليها من فتوحات هائلة - كانت استمرارًا للسياسة التي أرسى أبوبكر دعائمها في هذا المجال.

والحديث عن علاقة المسلمين بالروم في خلافة أبي بكر يتطلب إلقاء الضوء على عدد من النقاط المحددة التي يمكن بلورتها فيما يأتي:

١- الظروف التي أحاطت بنشوب الصراع بين المسلمين والروم في تلك الفترة.

٢- قرار أبي بكر بإرسال الجيوش ضد الشام، وعملياتها العسكرية الأولى.

٣- المواجهة الكبرى مع الروم في عصر أبي بكر.

٤- الموقف على جبهة الصراع بين الجانبين عند وفاة أبي بكر.

ونبدأ الآن في مناقشة هذه النقاط بالترتيب الذي ذكرناه.

***

أولاً: الظروف التي أحاطت بنشوب الصراع بين المسلمين والروم في خلافة أبي بكر:

استهل أبو بكر خلافته بإنفاذ بعث أسامة بن زيد ضد الحدود الشامية، وهو لم يكن في ذلك إلا مُنفِّذًا لقرار اتخذه رسول الله ﷺ قبيل وفاته؛ وذلك حين أراد الرد على الاستفزازات المتكررة من عرب الشام المتحالفين مع الروم، وعلى رأسهم الغساسنة. وقد بدأت هذه الاستفزازات بقتلهم للحارث بن عمير الأزدي مبعوث رسول الله إليهم لدعوتهم إلى الإسلام(٢). وتصاعد التوتر بين الجانبين في العصر النبوي حتى بلغ ذروته في معركة مؤتة التي فوجئ فيها المسلمون بانضمام الروم إلى أحلافهم من عرب الشام. وفَقَدَ الجيش الإسلامي في هذه المعركة القادة الثلاثة: زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة على التوالي(٣). ولعل أهم نتيجة أسفرت عنها معركة مؤتة أنها وجهت أنظار المسلمين في تلك المرحلة المبكرة إلى ما تمثله الجبهة الشمالية من تهديد حقيقي للدولة الإسلامية الناشئة. ولم تكن غزوة تبوك (٩هـ/ ٦٣٠م) إلا انعكاسًا لخطورة ذلك التهديد؛ فقد جاءت ردَّ فعل لما أشيع من أن هرقل وأحلافه يعدون العدة لغزو المدينة. وقد توجه الرسول ﷺ على رأس جيشه في اتجاه الشام حتى وصل تبوك فلم يلق عدوًا فعاد إلى المدينة(٤). ولكن تهديد الروم وأحلافهم للدولة الإسلامية في العصر النبوي لم يتوقف بعد غزوة تبوك. وفي هذا الإطار يمكننا أن ننظر إلى بعث أسامة بن زيد الذي أشرنا إليه الآن؛ فقد كان الرسول ﷺ يهدف من ورائه إلى الرد على بعض ما صدر عن الجبهة الشامية من عداء سافر ضد دولة المدينة. ورغم أن أسامة خرج على رأس جيشه في اتجاه الشام تنفيذًا لهذه المهمة فإنه لم يتمكن من إتمامها نظرًا لوفاة الرسول ﷺ، فاضطر إلى العودة إلى المدينة انتظارًا لأمر خليفة رسول الله.

وقد كان أول قرار اتخذه أبو بكر بعد خلافته إنفاذ بعث أسامة، رغم الأخطار التي كانت تحيط بالدولة الإسلامية حينذاك نتيجة ظهور المرتدين والمتنبئين. وقد كلمه بعض كبار الصحابة في تأجيل إنفاذ هذا البعث قائلين له: «إن العرب قد

انتقضت عليك من كل جانب، وإنك لا تصنع بتفريق هذا الجيش المنتشر شيئًا، اجعلهم عُدَّة لأهل الردة ترمي بهم في نحورهم»(٥) . ولكن أبا بكر رفض الاستجابة لذلك قائلاً: «والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تأكلني بالمدينة لأنفذت هذا البعث ولا بدأت بأول منه»(٦) . وقد كانت حجته في ذلك أن هذا قرار اتخذه رسول الله ﷺ فلا يملك إلا أن يقوم على تنفيذه.

ومن هنا يمكننا أن نقول: إن بعث أسامة في خلافة أبي بكر كان امتدادًا لعلاقته ﷺ بالروم ولم يكن داخلاً في إطار العلاقة بين أبي بكر والروم. وقد نجح هذا البعث في المهمة المحددة التي أناطه بها الرسول وهي تأديب عرب الشام الذين طال استفزازهم للمسلمين، وكانت فلسطين هي مسرح العمليات التي خاضها جيش أسامة(٧) .

وبعد عودة أسامة من بعثه الذي استغرق أربعين يومًا (أو ستين أو سبعين طبقًا لبعض الروايات)(٨) ، استطاع أبو بكر أن يصرف كل جهده لمواجهة تلك الحركة التي كادت تعصف بكيان الدولة الإسلامية، وهي حركة الردة. وقد تمكن من القضاء عليها في غضون العام الأول من خلافته(٩) .

وقد شهد العام الثاني من خلافته فتح صفحة جديدة من صفحات المواجهة بين المسلمين والروم حيث اندلع الصراع بين الجانبين. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما الذي أدى إلى اندلاع ذلك الصراع في خلافة أبي بكر؟

لكي نتمكن من الإجابة عن هذا السؤال لابد لنا أولاً من مناقشة المقدمات الأولى لذلك الصراع في عصر أبي بكر. وتتمثل تلك المقدمات في معركة الفراض، ثم في حملة خالد بن سعيد بن العاص:

أ- **معركة الفراض**: يقصد بالفراض تخوم الشام والعراق والجزيرة في شرقي الفرات(١٠) . وقد كانت هذه المنطقة مسرحًا للمعركة التي نتناولها الآن. وخلفيات هذه المعركة تتلخص في أن خالد بن الوليد- الذي كان أبو بكر قد أرسله لغزو العراق في المحرم سنة ١٢هـ(١١) (٨٣٣هـ)- انتهت به مطاردته

للقبائل العربية المتحالفة مع الفرس إلى منطقة الفرات على الحدود الشامية، حيث عسكر هناك بقواته على الضفة الشرقية لنهر الفرات. ولكن الحامية البيزنطية على الضفة الغربية للنهر لم تقبل بوجود خالد إزاءها، وبدأت تعبِّر عن تحديها له وتستعين في ذلك بحاميات فارس وبالقبائل العربية الموالية لها(١٢). وقد طلبت الحامية البيزنطية من خالد أن يَعْبُر الفرات بقواته ليواجهها على الضفة الغربية للنهر، فأبى خالد، وطلب من أعدائه العبور إليه ففعلوا. ودارت رحى معركة طاحنة بين الروم (البيزنطيين) وأحلافهم من الفرس والقبائل العربية من جانب؛ وبين قوات خالد من الجانب الآخر. وانتهت المعركة بهزيمة ساحقة للبيزنطيين وأحلافهم، حيث أعمل المسلمون فيهم السيف. ووصل عدد قتلى العدو - طبقًا لتقديرات بعض مصادرنا - إلى مائة ألف(١٣). ولا نشك في أن هذا الرقم مبالغ فيه إلى حد كبير، ولكنه رغم ذلك مؤشر على فداحة الخسارة التي لحقت بالعدو(١٤).

ب- **حملة خالد بن سعيد بن العاص**: كان خالد بن سعيد أحد السابقين إلى الإسلام؛ فهو بينهم ثالث أو رابع أو خامس، على اختلاف في الروايات(١٥)؛ كما كان أحد الذين هاجروا إلى الحبشة، وكان من كُتَّاب النبي ﷺ بالمدينة(١٦).

وتكاد مصادرنا تجمع على أن خالد بن سعيد كان من بين الأمراء الذين اختارهم أبو بكر لغزو الشام؛ ولكنها تختلف فيما وراء ذلك اختلافًا بينًا. فيذكر الطبري في إحدى رواياته أن أبا بكر وجه الجنود إلى الشام في بداية سنة ١٣هـ (٦٣٤م)؛ «فأول لواء عقده لواء خالد بن سعيد بن العاص، ثم عزله قبل أن يسير، وولى يزيد بن أبي سفيان، فكان أول الأمراء الذين خرجوا إلى الشام»(١٧). وقد اكتفى أبو بكر بعد ذلك بتوجيه خالد بن سعيد إلى تيماء(١٨) وأمره ألا يبرحها وأن يدعو من حوله من العرب إلى الانضمام إليه، وألا يقاتل إلا من قاتله، فاجتمعت إليه جموع كثيرة. وعندما علمت الروم بضخامة تلك الجموع استنفروا من استطاعوا من قبائل بهراء وكلب وسليح وتنوخ ولخم وجذام وغسان، وتوجهوا للقاء خالد بن سعيد، واستطاعوا - بقيادة باهان

البطريق- أن ينزلوا به هزيمة فادحة وأن يقتلوا عددًا كبيرًا من جنده. وقد كان من الممكن أن تكون الهزيمة أكثر فداحة لولا ما قام به عكرمة بن أبي جهل- الذي جاء مددًا لجيش خالد بن سعيد - من جهد ناجح في إنقاذ ما تبقى من فلول ذلك الجيش، «وعند ذلك اهتاج أبو بكر للشام وعناه أمره»(١٩).

ويذكر الطبري - في رواية أخرى - أن أبا بكر «وجه خالد بن سعيد بن العاص إلى الشام حيث وجه خالد بن الوليد إلى العراق، وأوصاه بمثل الذي أوصى به خالدًا»(٢٠).

ويروى اليعقوبي أن أبا بكر لما عهد بالإمارة إلى خالد بن سعيد قال له عمر: «أتولِّي خالدًا وقد عزل عنك بيعته وقال لبني هاشم ما قد بلغك؟ فوالله ما أرى أن توجهه!» فاستجاب أبو بكر لتوجيه عمر وحلّ لواءه(٢١).

ويروى البلاذري أن خالد بن سعيد - بعد أن عزله أبو بكر- سار محتسبًا في جيش شرحبيل بن حسنة(٢٢).

أما الأزدي فإنه يذكر أن أبا بكر وقع اختياره أولاً على خالد بن سعيد ليكون أميرًا على الجيش الذي أعده لغزو الروم، ولكن خالدًا «كره الإمارة واستعفى أبا بكر فأعفاه»، وآثر أن يسير بصحبة الجيش الذي تولى إمارته أبوعبيدة بن الجراح(٢٣).

ويكتفي ابن مسكويه بالقول بأن أبا بكر أمر خالد بن سعيد «أن يأتي تيماء ويقيم بها فلا يتجاوزها، ويندب إليه من حوله، ويتقوّى به حتى تأتيه الجنود»(٢٤).

هذه صورة من الاضطراب الذي تحفل به مصادرنا فيما يتعلق بحملة خالد ابن سعيد. والحق أن الباحث - في ضوء ذلك- قد يجد نفسه عاجزًا عن ترجيح بعض هذه الأقوال على بعض. ولعل ما يمكن استنتاجه وسط تضارب الروايات أن أبا بكر وجه خالد بن سعيد في حملة لم يكن الهدف منها غزو الشام بل كسب ولاء القبائل الناطقة بالعربية على الحدود ونشر الإسلام بينها؛ وهي نفس السياسة التي بدأها الرسول ﷺ منذ العام السادس للهجرة حينما

أرسل عبدالرحمن بن عوف إلى دومة الجندل[٢٥] . ويبدو - من خلال السياق العام للأحداث أن حملة خالد بن سعيد حدثت في أواخر سنة ١٢هـ (أوائل سنة ٦٣٤م)، أي قبل أن يرسل أبو بكر جيوشه الرئيسية إلى الشام في أوائل سنة ١٣هـ (ربيع سنة ٦٣٤م). وقد أمر أبو بكر خالدًا أن يتخذ من تيماء قاعدة له، وأن يدعو العرب المقيمين هناك إلى الانضمام إليه، وذلك حتى يكون هو وأتباعه «رِدْءًا للمسلمين»- على حد تعبير بعض المؤرخين[٢٦] - أي سندًا ووقاية لهم. والواضح أن الروم لم تطمئن نفوسهم لوجود خالد بن سعيد على رأس هذا الحشد من جنوده بالقرب من حدودهم؛ فجمعوا له جموعهم ونجحوا في استدراجه والإحاطة به حيث ألحقوا به هزيمة فادحة فرَّ على أثرها إلى مكان يقال له: «ذو المروة» بوادي القرى. وقد كان وقع الخبر أليمًا على أبي بكر، ولهذا كتب إلى خالد بن سعيد يوبخه ويقول له: «لعمري إنك مقدام محجام نجَّاءٌ من الغمرات!». وعندما ذهب خالد إلى المدينة والتقى به أبو بكر قال له: «أنت امرؤ جُبُنٌ لدى الحرب»، ثم علق قائلاً عند انصرافه: «كان عمر وعلي أعلم بخالد مني»[٢٧] ! وقد كانت هذه الأحداث وراء تفكير أبي بكر في ا تخاذ الإجراء المناسب ضد الروم.

***

لعلنا نستطيع الآن أن نجيب عن السؤال الذي طرحناه في صدر هذا البحث: ما الذي أدى إلى نشوب الصراع بين المسلمين والروم في عصر أبي بكر؟

يمكننا أن نقول: إن الملابسات التي أحاطت بمعركة «الفراض»، ثم التطورات التي أسفرت عنها حملة خالد بن سعيد- بصورة أخص- كانت من أهم الأسباب التي وجهت نظر أبي بكر والمسلمين إلى ضرورة غزو الشام؛ فقد جسَّدت أمام الجميع حجم التحدي الذي كانت الدولة الإسلامية تتعرض له من جانب دولة الروم. وقد عبَّر الطبري عن ذلك المعنى تعبيرًا دقيقًا حين عقب في الرواية السابقة على هزيمة خالد بن سعيد، بقوله: «وعند ذلك اهتاج أبو بكر للشام وعناه أمره»[٢٨] .

ولعل من المفيد هنا أن نشير إلى أن هرقل أمر بوضع رابطة في البلقاء بالقرب من حدود شبه الجزيرة العربية لحماية الحدود البيزنطية بعد بعث أسامة في صدر خلافة أبي بكر(٢٩) . ولا شك أن هذه الرابطة (أو الحامية) مثلت تهديدًا أمنيًا خطيرًا للمسلمين، وقد ظهر أثر ذلك التهديد بشكل حاد في حملة خالد بن سعيد كما وضحنا. فلم يكن أمام أبي بكر من خيار- كما يذكر سيد أمير علي- إلا أن يواجه البيزنطيين ويعمل على إخضاع القبائل العربية الدائرة في فلكهم. وقد كان هذا إجراء لابد منه لتوفير الحماية للدولة الإسلامية(٣٠) .

***

يتبين لنا - في ضوء ما شرحناه الآن - خطأ الزعم الذي يتردد كثيرًا في كتابات المستشرقين؛ ومؤداه أن التوسع الإسلامي في اتجاه الشام مسألة أملتها الضرورات الاقتصادية، وأن العرب الجوعى كانوا يريدون أن يهيئوا لأنفسهم ميدانًا فسيحًا للسلب والنهب وتحصيل الغنائم. يذكر إرفنج Irving بهذا الصدد أن العرب عرفوا الشام قبل الإسلام بوقت طويل عن طريق احتكاكهم التجاري الدائم به، وقد رأوا فيه من صنوف الرخاء والخيرات ما أغراهم بافتتاحه بعد ظهور الإسلام(٣١) . ويقول وليم موير Muir: «إن كل سكان شبه الجزيرة العربية - بدوًا كانوا أم حضرًا- ربطهم بالإسلام رباط مشترك هو حب السلب والنهب والتعطش إلى الغنيمة»(٣٢) . ويرى كايتاني Caetani أن الدوافع الأساسية للفتوح الإسلامية كانت مادية؛ فالجزيرة العربية - بحكم مواردها الطبيعية المحدودة- لم تكن قادرة على إشباع الحاجات المادية لسكانها. ومن هنا شعر العرب أنهم مهددون بالفقر والجوع، فقاموا بمحاولة مستميتة لتحرير أنفسهم «من سجن الصحراء الساخن». وهكذا كانت الظروف المعيشية الصعبة التي خضع لها العرب مسئولة في المقام الأول عن اندفاعهم للغزو في اتجاه الإمبراطورية البيزنطية وإمبراطورية الفرس(٣٣) .

وهناك زعم لا يقل عن سابقه تهافتًا، وهو يتلخص في أن التوسع الإسلامي جاء تلبية لمتطلبات النزعة القتالية المتأصلة لدى القبائل العربية. يذكر

«فيليب حتى» في هذا السياق أن الروح القتالية لدى العرب جعلت الغزو نوعًا من الرياضة القومية(٣٤) . ويقول في مكان آخر: «لم تكن الفتوحات الإسلامية ثمرة حساب دقيق وهادئ على الإطلاق، بل يبدو أن المعارك بدأت كغارات هدفها إيجاد متنفَّس جديد للروح القتالية لدى القبائل التي منعها الإسلام من أن يحارب بعضها بعضًا»(٣٥) . ويرى لامنس Lammens أن السبب الرئيسي وراء الفتوحات الإسلامية هو الرغبة الجامحة لدى العرب في شن الغارات، وأن نجاحهم المبدئي في هذا هو الذي أغراهم بالتوسع دون تخطيط سابق، فكفاءتهم العسكرية كانت أكبر سبب لهذا التوسع(٣٦) .

إن جانب الشطط في هذه الآراء وأمثالها يرجع أساسًا إلى أنها نظرت إلى الفتوحات الإسلامية الأولى بمعزل عن إطارها التاريخي الصحيح؛ أي أنها - بعبارة أخرى- لم تحاول أن تنظر نظرة موضوعية إلى جذورها الحقيقية في عصر الرسول ﷺ وخليفته أبي بكر. وقد أشرنا في صدر هذا البحث إلى أن مواجهات المسلمين مع الروم وأحلافهم من عرب الشام في عصر الرسول ﷺ لم تكن إلا ردًا على عدوان واقع أو متوقع. فسرية مؤتة - كما ذكرنا - كانت ردًا على عدون وقع فعلاً، وغزوة تبوك كانت ردًا على عدوان أشيع أن هرقل إمبراطور الروم يوشك أن يقوم به ضد المدينة، ثم انسحب الرسول ﷺ عندما تحقق من كذب هذه الإشاعة. أما بعث أسامة بن زيد فقد كان يهدف إلى تحقيق ما عجزت سرية مؤتة عن تحقيقه وهو تأديب عرب الشام المتحالفين مع الروم جزاء ما ارتكبوه في حق الدولة الإسلامية من تجاوزات متكررة. والحق أن المسلمين في عصر النبوة كانوا يكرهون لقاء الروم، ولم يكونوا يسعون إلى افتعال مواجهة معهم(٣٧) . فإذا أضفنا إلى ذلك ما ناقشناه الآن فيما يتعلق بجذور المواجهة الإسلامية البيزنطية في عصر أبي بكر اتضح لنا كذلك أن المسلمين كانوا بالغي الحرص على عدم الاشتباك في صراع مع الروم (البيزنطيين) الذين تمكنت هيبتهم من نفوسهم، ولكنهم اضطروا اضطرارًا إلى الدخول في مواجهة شاملة معهم عندما أيقنوا أنهم يتربصون بهم ويتحينون الفرصة للقضاء

عليهم، ولم يكونوا في هذه المواجهة هاربين من جدب الصحراء ولا متعطشين إلى السلب والنهب، ولم يكونوا أيضًا يحاولون البحث عن متنفس لطاقاتهم القتالية التي طالما وجدت هذا المتنفس قبل الإسلام في أيامهم المشهورة كما يدعي البعض، بل كانوا يجاهدون للذود عن كيانهم وحماية عقيدتهم(٣٨).

ثانيًا: قرار أبي بكر بإرسال الجيوش ضد الشام؛ وعملياتها العسكرية الأولى:

عندما أدرك أبو بكر طبيعة الخطر القادم من الشام عقد اجتماعًا دعا إليه عمر وعثمان وعليًا وطلحة والزبير وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ووجوه المهاجرين والأنصار واستشارهم في غزو الروم، فيروى «الأزدي» أن عبدالرحمن بن عوف كان من بين المتكلمين في هذا الاجتماع فقال لأبي بكر: «يا خليفة رسول الله؛ إنها الروم وبنو الأصفر! حدٌّ حديد وركن شديد»! ثم اقترح عليه ألا يقحم الخيل عليهم إقحامًا، بل يبعثها لتغير في أطراف بلادهم وتصيب منهم. وأشار عليه في الوقت نفسه أن يبعث «إلى أقاصي اليمن وإلى ربيعة ومضر»، فإذا جمعهم إليه غزا الروم بنفسه أو أغزاهم سواه. ويضيف الأزدي أن أبا بكر بعد أن استمع إلى آراء عدد من كبار الصحابة قام في الناس خطيبًا فحثهم على جهاد الروم بالشام قائلاً: «إني مؤمِّرٌ عليكم أمراء، وعاقدٌ لهم عليكم، فأطيعوا ربكم، ولا تخالفوا أمراءكم». ثم يستمر الأزدي في روايته فيقول: «فسكت الناس، فوالله ما أجابه أحدٌ هيبةً لغزو الروم، لما يعلمون من كثرة عددهم وشدة شوكتهم». ولكن عمر بن الخطاب حثهم على الاستجابة لنداء خليفة رسول الله، فأجابوه(٣٩).

ويروي اليعقوبي أن أبا بكر لما أراد أن يغزو الروم «شاور جماعة من أصحاب رسول الله، فقدَّموا وأخَّروا، فاستشار علي بن أبي طالب فأشار أن يفعل، فقال: إن فعلت ظفرت. فقال: بُشِّرت بخير!»(٤٠).

وهكذا اتخذ أبو بكر قرار غزو الروم بعد عقد مجلس شورى ضم كبار الصحابة. وقد كانت الخطوة التالية هي وضع هذا القرار موضع التنفيذ بكل وسائل الإعداد المطلوب؛ فكتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وغيرهم من

قبائل العرب يستنفرهم إلى الجهاد، فاجتمع إليه منهم جمع كثير[٤١]، فبدأ الخليفة عندئذٍ يُعِدُّ جيوش الغزو ويختار لها الأمراء.

وتجمع مصادرنا على أن أبا بكر أرسل في البداية عدة جيوش في اتجاه الشام، وعيَّن لكل جيش وجهته وأميره؛ ولكنها تختلف في عدد هذه الجيوش وأمرائها، وفيمن أسندت إليه القيادة العامة من بين الأمراء، كما أنها لا توضح لنا تمامًا: هل خرجت هذه الجيواش متزامنةً أو تبع بعضها بعضًا؟

فتذكر معظم الروايات أن أبا بكر أرسل جيوشًا أربعة إلى الشام في أول سنة ١٣هـ (٦٣٤م) وعين عليها أربعة من الأمراء، فأرسل عمرو بن العاص إلى فلسطين، وأبا عبيدة بن الجراح إلى حمص، ويزيد بن أبي سفيان إلى دمشق، وشرحبيل بن حسنة إلى الأردن[٤٢].

ولكن بعض المؤرخين يتجاهل أبا عبيدة وجيشه في هذه المرحلة. يقول البلاذري في ذلك: «وكان أبو بكر أراد أبا عبيدة أن يعقد له فاستعفاه من ذلك. وقد روى قوم أنه عقد له، وليس ذلك بثبت، ولكن عمر ولاه الشام كله حين استخلف»[٤٣]. ومن حقنا أن نتردد كثيرًا في قبول رواية البلاذري هذه؛ فالثابت أن أبا عبيدة كان أحد القادة البارزين بالشام في خلافة أبي بكر، وسوف يتردد اسمه غير مرة خلال تلك المرحلة. وقد كان أبو عبيدة – طبقًا لأشهر الأقوال– هو الذي استمد أبا بكر عندما رأى كثرة جنود الروم بالشام، فأمده بخالد بن الوليد كما سيأتي[٤٤]. صحيح أن البلاذري يذكر أن عمرو بن العاص كان هو الذي استمد أبا بكر فأرسل إليه خالدًا لنجدة المسلمين هناك،[٤٥] ولكنه يذكر في السياق نفسه أن أبا بكر قال للأمراء: «إن اجتمعتم على قتال فأميركم أبوعبيدة بن عامر بن عبد الله بن الجراح الفهري، وإلا فيزيد بن أبي سفيان»[٤٦]. ومن المستبعد أن يرشح الخليفة أبا عبيدة لتوليٍّ الإمْرة العامة عند الاجتماع دون أن يعطيه حق الإمرة الخاصة[٤٧].

الذي نطمئن إليه – إذن – أن أبا بكر وجَّه إلى الشام جيوشًا أربعة لا ثلاثة؛ وقد كان لكل جيش أميره كما ذكرنا. أما عند اجتماع الجيوش فإننا نرجح أن

مسئولية القيادة العامة أسندت إلى أبي عبيدة كما يشير إلى ذلك بوضوح نص البلاذري السابق، وهذا ما يؤكده معظم المؤرخين الذين تناولوا أحداث تلك الفترة. فيذكر اليعقوبي - على سبيل المثال - أن أبا بكر قال لأمراء جيوشه: «إذا اجتمعتم فأمير الناس أبو عبيدة»(٤٨) ، ويذكر الأزدي أن عمرو بن العاص سأل أبا بكر أن يجعله أميرًا على من يقدم عليه من المسلمين فقال: «لا؛ ولكنك أحد أمرائنا هناك؛ فإن جمعتكم حرب فأميركم أبو عبيدة بن الجراح»(٤٩) .

والواضح أن هذه الجيوش الأربعة لم تخرج متزامنة، بل تبع بعضها بعضًا. وقد كان أسبقها خروجًا - على أرجح الآراء - جيش يزيد(٥٠) ؛ فقد انطلق صوب الشام في صفر سنة ١٣هـ (أبريل ٦٣٤م). هذا مع ملاحظة أن بعض مصادرنا - كما سبق - تذكر أن أبا بكر «وجه الجنود إلى الشام أول سنة ثلاث عشرة»(٥١) . ولكن البلاذري يلقي مزيدًا من الضوء على ذلك حين يذكر أن الجيوش التي أعدها أبو بكر لغزو الشام عسكرت بالجُرْف (شمالي المدينة) طوال شهر المحرم سنة ١٣هـ. وكان عقد أبي بكر لألوية هذه الجيوش في مستهل صفر(٥٢) . وعقد الألوية إيذان بانطلاقها للغزو. فأول لواء عقده أبو بكر هو لواء يزيد؛ فجيشه - إذن - كان أول الجيوش خروجًا.

ويختلف تقدير مصادرنا لعدد المقاتلين الذين اشتمل عليهم كل جيش من هذه الجيوش الأربعة. ويمكننا أن نستنتج من التقديرات المختلفة أن كل جيش كان يضم حوالي سبعة آلاف مقاتل؛ هذا بالإضافة إلى ستة آلاف آخرين كانوا تحت قيادة عكرمة ابن أبي جهل. ويبدو أن هؤلاء قاموا بدور الجيش الاحتياطي الذي كانت مهمته تأمين المسلمين؛ فقد كانوا - على حد تعبير مصادرنا- «ردءًا» للمسلمين(٥٣) .

وعندما انطلقت هذه الجيوش في غزوها خرج أبو بكر يودعها جيشًا بعد جيش ويوصي أمراءها. وقد حفظت لنا مصادرنا طرفًا من وصاياه البليغة في هذا المقام. وقد كان يزيد - بالطبع - أول من ودعه أبو بكر وأوصاه(٥٤) ، فكان مما جاء في وصيته: «إذا قدمت على جندك فأحسِنْ صحبتهم وابدأهم بالخير وعِدْهم إياه. وإذا وعظت فأوجز، فإن كثير الكلام يُنسي بعضُه بعضًا. وأصلحْ نفسَك

يصلح لك الناس. . . وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به. . وامنع مَنْ قِبَلَك من محادثتهم وكن أنت المتولي لكلامهم. . . وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة. . وأكثِرْ حرسك وبددهم في عسكرك، وأكْثِر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته غفل عن محرسه فأَحْسِن أدبه وعاقبه في غير إفراط، وأَعْقِبْ بينهم بالليل، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة، فإنها أيسرهما لقربها من النهار. . . ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلانيتهم، ولا تجالس العبَّاثين، وجالس أهل الصدق والوفاء، واصدق اللقاء، ولا تَجْبُن فيجبن الناس، واجتنب الغلول[٥٥] ، فإنه يقرب الفقر ويدفع النصر. وستجدون أقوامًا حبسوا أنفسهم في الصوامع، فدعهم وما حبسوا أنفسهم له»[٥٦] .

وبعد أن روى ابن الأثير هذه الوصية علق قائلاً: «وهذه من أحسن الوصايا وأكثرها نفعًا لولاة الأمر»[٥٧] .

ولعل ما تكشف عنه هذه الوصية أن المهمة التي خرج فيها يزيد بن أبي سفيان ورفاقه إلى الشام كانت - في تقدير أبي بكر - مهمة طويلة الأمد خطيرة التبعات؛ فقد انطوت على غزو حقيقي لبلاد الشام بكل ما يعنيه ذلك من خطر تسلل العدو إلى صفوف المسلمين وكشف مخططاتهم، ومن أهمية الحراسة الدائمة اليقظة التي لا تغفل، ثم من احتمال تبادل السفارات مع العدو لطرح مشروعات الصلح. . إلى غير ذلك. وأبو بكر هنا - بكل ما أوتي من بصيرة وحكمة - يُعَلِّم يزيد كيف يكون مسلكه بين جنده في غزو طويل الأمد، وكيف يتعامل مع كثير من المواقف والتطورات التي قد يواجهها أثناء ذلك. لقد انتهت مرحلة المناوشات بين المسلمين والروم، وبدأت مرحلة المواجهة الشاملة.

وقد كان شرحبيل بن حسنة ثاني الأمراء خروجًا حيث خرج بعد يزيد بأيام يسيرة[٥٨] ميممًا شطر الأردن. ثم تلاه أبو عبيدة بن الجراح الذي خرج في اتجاه حمص كما ذكرنا. وقد سلك كلاهما طريق تبوك مثلما فعل يزيد.

أما عمرو بن العاص فقد اتجه بجيشه صوب فلسطين سالكًا طريق أيلة (العقبة)

الساحلي. وقد انتهى به المسير إلى منطقة غزة حيث عسكر هناك في مكان يقال له «غمر العربات»(٥٩). والرواية الشائعة أن عمراً كان آخر الأمراء خروجاً(٦٠) رغم أن هناك من الروايات ما يشير إلى أنه كان أسبقهم خروجاً(٦١).

ومهما يكن من خلاف حول عدد جيوش المسلمين بالشام في تلك المرحلة: هل هي ثلاثة أو أربعة؛ وحول الشخصية التي أسندت إليها القيادة العامة بين أمراء الجيوش؛ وحول ترتيب خروج الأمراء، فإن ما تكاد مصادرنا تجمع عليه أن أبا بكر أرسل الجيوش الإسلامية إلى الشام في أوائل سنة ١٣هـ (أو في شهر صفر على الأرجح = أبريل سنة ٦٣٤م)، وأن هذا التاريخ يمثل بداية المواجهة الشاملة بين المسلمين والروم.

ولكن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هنا هو: لماذا آثر أبو بكر أن يرسل جيوشاً أربعة (أو ثلاثة) إلى أماكن مختلفة من الشام بدلاً من إرسال جيش واحد إلى مكان واحد تحت قيادة واحدة؟

رغم أننا لا نستطيع تقديم إجابة قاطعة عن هذا السؤال فإن الذي نرجحه أنا أبا بكر لم يُرِدْ في هذه المرحلة المبكرة أن يركز كل قواته في مكان واحد قد يؤخذ المسلمون فيه على حين غرة فيصابون بنكسة ربما تعذر عليهم علاج آثارها. ثم إن هذه المرحلة كانت بالنسبة إلى المسلمين مرحلة دراسة واستكشاف يحاولون من خلالها تحديد أكثر البؤر تهديداً لهم، ومن ثمَّ يمكنهم أن يوجهوا إليها صميم جهدهم. وهذا يفسر انتشار القوات الإسلامية على طول إقليم الشام وعرضه. ولم يغب عن بال أبي بكر ضرورة اجتماع هذه القوات تحت لواء واحد عند تحديد مصدر معين للخطر، فحدد لهم قائدهم العام الذي يجتمعون تحت رايته إذا جدَّ من المواقف ما يستدعي ذلك، وهو أبو عبيدة كما أشرنا(٦٢).

العمليات الأولى للجيوش الإسلامية في الشام:

يحيط بالروايات المتعلقة بالعمليات الأولى لجيوش المسلمين في الشام قبل معركة أجنادين قدر كبير من الغموض، بل والتضارب أحياناً. على أن الذي نستنتجه من تلك الروايات أن منطقة جنوب فلسطين بصفة خاصة كانت مسرحاً

لبعض المعارك المحدودة بين المسلمين والروم في تلك المرحلة المبكرة. ففي مكان يقال له: «وادي عربة» - بين البحر الميت وخليج العقبة(٦٣) - التقت فرقة إسلامية تحت قيادة أبي أمامة الباهلي، بفرقة بيزنطية تحت قيادة البطريق سرجيوس Sergius حاكم غزة. وقد تقهقر الروم أمام المسلمين ولجأوا إلى قرية من قرى غزة يقال لها: «الداثن» أو «الداثنة»(٦٤)، فسار المسلمون في أعقابهم بقيادة أبي أمامة وأنزلوا بهم هزيمة فادحة في «الداثن» وقتلوا بطريقهم سرجيوس. ويذكر المؤرخ البيزنطي ثيوفانس أن المسلمين قتلوا - بجانب سرجيوس - ثلاثمائة من رجاله «وعادوا بالكثير من الأسرى والغنائم بعد إحراز هذا النصر الباهر»(٦٥). وقد كانت معركة العربة (أو وادي عربة)، وما ارتبط بها من معركة الداثن، أول قتال بالشام بين المسلمين والروم بعد سرية أسامة بن زيد، كما تشير إلى ذلك معظم مصادرنا(٦٦).

ولكن التفاصيل المتباينة التي تمدنا بها تلك المصادر لا تقدم لنا إجابة وافية عن عدد من التساؤلات فيما يتعلق بتاريخ هذه المعركة والقائد الأعلى الذي عمل أبو أمامة تحت إمرته، ثم دور عمرو بن العاص في هذه المواجهة، وأهم نتائجها.

أما تاريخ هذه المعركة فالذي نرجحه أنها حدثت في شهر ربيع الآخر سنة ١٣هـ (مايو ٦٣٤م). فقد سبق أن ذكرنا أن الجيوش الإسلامية بدأت تحركها من «الجرف» في اتجاه الشام في شهر صفر ١٣هـ (أبريل ٦٣٤م). وقد حدثت معركة العربة والداثن أثناء سير القوات الإسلامية إلى وجهاتها المختلفة. ولما كان من الضروري اتخاذ بعض الاستعدادات لهذه المعركة وإجراء بعض الاتصالات فمن غير المتصور أن يتم ذلك قبل مرور أقل من شهر على بداية تحرك الجيوش الإسلامية في اتجاه الشام. والملاحظ أن بعض المؤرخين المحدثين يضع تاريخ هذه المعركة في فبراير سنة ٦٣٤م (ذي الحجة سنة ١٢هـ)(٦٧). وهؤلاء - كما هو واضح- لا يأخذون بالرواية العربية الشائعة التي تتفق عليها معظم مصادرنا وهي أن توجيه أبي بكر للجيوش إلى الشام حدث في المحرم أو صفر سنة ١٣هـ (مارس- أبريل سنة ٦٣٤م)، بل يعتقدون أن ذلك تم في خريف سنة ٦٣٣م

(أي حوالي منتصف سنة ١٢هـ). ولكن هذا مستبعد في ضوء الحقيقة التاريخية المعروفة وهي أن المسلمين- بعد فراغهم من حروب الردة في غضون العام الأول من خلافة أبي بكر- بدأوا حروبهم بالاتجاه شرقًا صوب إمبراطورية الفرس التي مثلت لهم تحديًا حقيقيًا في عصر الرسول ﷺ . وقد شجعهم على ذلك ما كانت تعانيه فارس من ضعف وتمزق داخلي في تلك الفترة (٦٨) . أما الروم فقد كان المسلمون يهابونهم «لما يعلمون من كثرة عددهم وشدة شوكتهم»(٦٩) . ولهذا كان الإقدام على مواجهتهم يحتاج إلى مزيد من الأناة والاستعدادات الخاصة. وهذا يجعلنا أكثر ميلاً إلى قبول ما ترويه معظم مصادرنا العربية من أن بداية المواجهة الحقيقية بين المسلمين والروم في عصر أبي بكر حدثت في مطالع سنة ١٣هـ (ربيع سنة ٦٣٤م).

أما بخصوص القائد الأعلى الذي عمل تحت إمرته أبو أمامة الباهلي في معركة العربة والداثن فإن «الأزدي» يروي أن أبا أمامة كان ضمن جيش أبي عبيدة، وأن يزيد بن أبي سفيان – عندما رأى جمعًا للروم بوادي عربة وهو في طريقه إلى الغزو- استمد أبا عبيدة فأمده بأبي أمامة(٧٠) .

ويذكر البلاذري أن يزيد بن أبي سفيان عندما بلغه أن بالعربة من أرض فلسطين جمعًا للروم وجَّه أبا أمامة الباهلي «فأوقع بهم وقتل عظيمهم ثم انصرف»(٧١) .

واللافت للنظر أن معظم مصادرنا لا تبرز دور عمرو بن العاص في هذه العمليات الأولى بالقدر المناسب، مع أن المتوقع أن يكون دور عمرو أكثر بروزًا في هذه الأحداث من أي دور سواه، حيث إن مسرحها فلسطين التي اختارها أبو بكر لتكون الوجهة الأساسية لعمرو.

على أن ما نرجحه – في إطار السياق العام للأحداث- أن يزيد بن أبي سفيان هو الذي تولى القيادة العليا في معركة العربة والداثن؛ فقد كان – كما تشير معظم المصادر- أول من علم بأن هناك تجمعا للروم في وادي عربة أثناء سيره إلى وجهته بالشام (والمعروف أنه كان أول الأمراء خروجًا)، فلم يكن أمامه من خيار إلا أن يواجه هذا الموقف مواجهة حاسمة تفاديًا لما قد يترتب على إحجامه عن ذلك من

تهديد للوجود الإسلامي كله بالشام. وقد استمد يزيد أبا عبيدة لأن جيشه - فيما يبدو - كان أقرب الجيوش إليه، أو لعله كان أقدرها على تقديم العون في ذلك الوقت. وقد جاء هذا العون في صورة قوة من خمسمائة رجل[٧٢] تحت قيادة أبي أمامة الباهلي الذي قام بالدور الأكبر في إدارة دفة المعركة في العربة والداثن بتوجيه أعلى من يزيد بن أبي سفيان. ولكن هذا لا يسمح لنا على الإطلاق أن نُغْفِل أهمية الدور الذي قام به عمرو بن العاص في هذه المواجهة الأولى؛ إذ إننا نرجح أن وقت وصول عمرو إلى مسرح المعركة في وادي عربة تقارب كثيرًا مع الوقت الذي وصل فيه يزيد، فكان لابد من تضافر جهود القائدين. وفي بعض مصادرنا ما يشير إلى أن عمرًا تولى جانب التفاوض مع أحد بطارقة الروم قبيل معركة الداثن، فلما فشلت المفاوضات استأنف المسلمون القتال[٧٣].

ورغم أن نتيجة معركة العربة والداثن جاءت لصالح المسلمين تمامًا فالواضح أن المعركة ذاتها حدثت عرضًا، وكانت ذات طابع محدود؛ فهي أقرب إلى المناوشات منها إلى المعارك الكبرى[٧٤]. وتذكر مصادرنا العربية أن عدد أفراد الجانب البيزنطي في تلك المعركة كان في حدود ثلاثة آلاف مقاتل[٧٥]. أما عدد أفراد الجانب الإسلامي فقد كان أقل من ذلك بكثير[٧٦]. والملاحظ أن المؤرخ البيزنطي ثيوفانس - في عرضه الموجز والمخل للعلاقات بين الروم والمسلمين في عصر أبي بكر- يخصص لهذه المعركة أسطرًا قليلة لا تسلّط عليها ضوءًا كافيًا[٧٧]، ويمكننا أن نقول - على أي حال- إن أهم نتيجة لمعركة العربة والداثن أنها نبهت هرقل- وكان في ذلك الوقت يقيم بحمص- إلى خطورة التهديد الإسلامي لإمبراطورية الروم، وإلى أن الموقف يحتاج منه إلى الإعداد لمواجهة حاسمة في جنوب فلسطين يحشد لها كل ما استطاع من عَدَدٍ وعتاد ليستأصل جذور هذا التهديد. وقد عَهِدَ هرقل بهذه المهمة إلى أخيه الشقيق ثيودور Theodorus، وهو «تَذارِق» في مصادرنا العربية[٧٨]. ولم يضيع ثيودور وقتًا؛ فقد بدأ على الفور يعد العدة لأخطر مواجهة بين الروم والمسلمين في عصر أبي بكر.

ثالثًا : المواجهة الكبرى بين المسلمين والروم في عصر أبي بكر :

حشد ثيودور- بتوجيه من هرقل- لهذه المواجهة جيشًا تقدره بعض مصادرنا بمائة ألف مقاتل(٧٩) ، في حين أن مصادر أخرى تصل به إلى أربعين ومائتي ألف مقاتل (٢٤٠,٠٠٠)(٨٠) ، وذلك في مقابل الحشود الإسلامية التي تختلف مصادرنا في تقديرها، فيذكر بعضها أنها تكونت من أربعة وعشرين ألف مقاتل(٨١) ، أو عشرين ألفًا طبقًا لبعض المصادر(٨٢) ، أو ستة وثلاثين ألفًا طبقًا لمصادر أخرى(٨٣) . ويقدم ميخائيل السرياني رواية مختلفة عما تقدمه المصادر العربية حيث يذكر أن جيش الروم بلغ خمسين ألف مقاتل في حين تكوّن الجيش الإسلامي من نصف هذا العدد(٨٤) . ولاشك أن هذه الرواية الأخيرة أحرى بالقبول، وخاصة فيما يتصل بجيش الروم. فمن غير المتصور حقًا أن يتألف هذا الجيش من مائتي ألف وأربعين ألفًا، كما جاء في بعض الروايات العربية. أما فيما يتصل بعدد أفراد الجيش الإسلامي فإن الرواية العربية والرواية السريانية تتقاربان كثيرًا وتعبران عن الحقيقة إلى حد كبير. ولكن الجدير بالملاحظة هنا أن قادة الجيوش الإسلامية في الشام اضطروا قبل بداية المواجهة إلى استمداد أبي بكر حيث أمدهم بقوة على رأسها خالد بن الوليد؛ وهذا ما سوف نناقشه في موضعه. ولكننا نكتفى هنا بالقول بأن استمداد المسلمين في الشام لأبي بكر يشير بوضوح إلى أنهم فوجئوا بضخامة جيش الروم بالمقارنة إلى الجيش الإسلامي. ومن هنا فالعدد الذي قدمه ميخائيل السرياني لجيش الروم هو أقل ما يمكننا أن نتصوره. ومن المرجح أنه زاد عن ذلك ولكن دون أن يصل إلى الحد الذي تسجله بعض المصادر العربية.

نأتي الآن إلى مناقشة نقطة أخرى تتعلق بقيادة الجيش على الجبهة الإسلامية والظروف التي آلت فيها القيادة إلى خالد بن الوليد، وما ارتبط بذلك من مسيرة من العراق إلى الشام، ثم نُتبع ذلك بالحديث عن قيادة الجيش على جبهة الروم.

فعلى الجبهة الإسلامية تضطرب المصادر اضطرابًا شديدًا في تحديدها لمن أنيطت به في البداية مسئولية القيادة العامة. فاليعقوبي- على سبيل المثال- يذكر

أن أبا بكر «دعا يزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص فعقد لهم، وقال: إذا اجتمعتم فأمير الناس أبو عبيدة»(٨٥) . ولكن البلاذري يروي عدة روايات متضاربة؛ فهو يذكر أولا أن أبا بكر قال للأمراء الذين وجههم إلى الشام: «إن اجتمعتم على قتال فأميركم أبو عبيدة عامر ابن عبد الله بن الجراح الفهري، وإلا فيزيد بن أبي سفيان»(٨٦) . ثم يذكر بعد ذلك بقليل في رواية أخرى أن أبا بكر قال لهؤلاء الأمراء: «إذا كان بكم قتال فأميركم الذي تكونون في عمله»(٨٧) . ثم يروي في نفس السياق أن أبا بكر «أمر عمرًا مشافهة أن يصلي بالناس إذا اجتمعوا»(٨٨) ؛ وهذا يعني إمرته العامة عليهم. ويذكر ابن سعد أن عمرو بن العاص كان هو القائد(٨٩) ، ولكن خليفة ابن خياط يذكر أن كل أمير كان قائدًا على جنده، ثم يعقب قائلاً: «يزعم بعض الناس أن عمرو بن العاص كان عليهم جميعًا»(٩٠) . أما الأزدي فيذكر أن أبا بكر لما ندب عمرو بن العاص بين من ندبهم من الأمراء لحرب الروم في الشام قال له عمرو: «ياخليفة رسول الله ﷺ، ألست أنا الوالي على الناس»؟ فقال له أبو بكر: «لا، ولكنك أحد أمرائنا هناك، فإن جمعتكم حرب فأميركم أبو عبيدة بن الجراح»(٩١) .

إن ما نستطيع أن نستنتجه - من خلال مقارنة هذه الروايات المتضاربة- أن مسئولية القيادة العامة في البداية كانت في يد أبي عبيدة بن الجراح؛ فهو الذي يتردد اسمه مقترنًا بهذه المسئولية في معظم مصادرنا، كما أن شخصيته كانت تتمتع بوزن خاص بين هؤلاء الأمراء جميعًا؛ فهو صاحب السجل المتميز في الإسلام منذ ظهوره حتى ذلك الوقت. أما مسئولية القيادة الميدانية المباشرة فقد كانت في يد عمرو بن العاص؛ لأن ميدان المواجهة التي نتحدث عنها كان في المنطقة التي أسند إليه أبو بكر إدارة عملياتها الحربية.

ولكن تطور الأحداث بعد ذلك أدى إلى إسناد مسئولية القيادة العامة إلى خالد بن الوليد بدلاً من أبي عبيدة بن الجراح. فقد أشرنا منذ قليل إلى أن المسلمين فوجئوا بضخامة جيش الروم بالنسبة إلى جيش المسلمين. والمرجح أن

أبا عبيدة - بوصفه القائد الأعلى للجيوش الإسلامية في الشام في ذلك الوقت- هو الذي استمد أبا بكر[٩٢] ، رغم أن بعض المصادر تنسب ذلك إلى عمرو بن العاص[٩٣] بوصفه القائد الميداني المباشر في جنوب فلسطين، وهي المنطقة التي كانت مسرح هذه المواجهة الكبرى.

وأيا ما كان الأمر فقد استجاب أبو بكر إلى ذلك دون إبطاء، وأرسل خالد ابن الوليد على رأس قوة مختارة لنجدة المسلمين بالشام. وقد كان خالد في ذلك الوقت يتولى إدارة العمليات العسكرية الإسلامية على الجبهة الفارسية بالعراق، ويسانده في ذلك نخبة من القادة من أبرزهم المثنى بن حارثة الشيباني الذي شغل مكان خالد على الجبهة الفارسية بعد أن غادر الأخير العراق[٩٤] .

ويختلف المؤرخون اختلافًا بينًا في تقديرهم لعدد أفراد القوة التي صحبت خالدًا من العراق إلى الشام. ويتراوح هذا التقدير ما بين بضع مئات إلى عشرة آلاف[٩٥] . ولا يتسنى لنا أن نقطع برأي في هذا التقدير نظرًا لتضارب الروايات في هذا الصدد، ولكن الأكثر اتساقًا مع طبيعة المهمة التي أنيطت بخالد أن يصل هذا العدد إلى بضعة آلاف لا بضع مئات[٩٦]. ذلك أن المسلمين في الشام استنجدوا بأبي بكر عندما علموا بكثرة حشود الروم. فالأقرب إلى التصور- إذن- أن يكون في صحبة خالد من الجنود عدد يحقق الغرض من مهمته. وبضعة آلاف أكثر تحقيقًا لهذا الغرض من بعض مئات. وإلى ذلك يشير النص التالي لابن مسكويه: «كان المسلمون أشرفوا على الهلاك بالشام لكثرة جنود الروم، فكتب أبو بكر إلى خالد يأمره أن يستخلف على جنده ويسير في عدد وافر إلى إخوانه المسلمين بالشام»[٩٧] . ثم يذكر ابن مسكويه بعد قليل أن أبا عبيدة والمسلمين المحاربين بالشام استمدوا أبا بكر فـ «أمدهم بخالد بن الوليد من العراق في عشرة آلاف»[٩٨] .

ولم يكتف أبو بكر بإرسال خالد إلى الشام نجدة للمسلمين هناك، بل ولاه القيادة العليا مكان أبي عبيدة. على أن ما ينبغي أن نؤكده هنا أن ذلك لم يكن حطًا من شأن أبي عبيدة، ولكنه اعتراف بأن خالدًا كان رجل الساعة في تلك

الظروف العصيبة. فقد سولت للروم أنفسهم أن يقضوا على المسلمين قضاءً مبرمًا في تلك المواجهة، ولهذا حشد لها هرقل كل ما استطاع من عدد وعدة. وقد عبر أبوبكر عن تقديره لهذا الموقف بقوله: «والله لأُنسِينَّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد»(٩٩). ومن هنا كتب إلى خالد كتابًا يخبره فيه بأنه عزله عن العراق وولاه القيادة العامة في الشام، ومما جاء فيه قوله: «... أما بعد؛ فإذا جاءك كتابي هذا فدع العراق، وامض متخففًا في أهل القوة من أصحابك.. حتى تأتي الشام فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين، فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة»(١٠٠). كما كتب إلى أبي عبيدة كتابًا يقول فيه: «...أما بعد؛ فإني قد وليت خالدًا قتال الروم بالشام، فلا تخالفه، واسمع له، وأطع أمره؛ فإني قد وليته عليك وأنا أعلم أنك خير منه، ولكن ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك»(١٠١). وقد كان خالد حريصًا كل الحرص على أن يرعى لأبي عبيدة هذه المكانة؛ فقد كتب إليه عندما غادر الحيرة بالعراق متوجهًا إلى الشام: «... لأبي عبيدة بن الجراح من خالد بن الوليد، سلام عليك.. لقد أتاني كتاب خليفة رسول الله ﷺ يأمرني بالمسير إلى الشام، وبالمقام على جندها والتولي لأمرها، ووالله ما طلبت ذلك ولا أردته ولا كتبت إليه فيه. وأنت -رحمك الله- على حالك التي كنت بها؛ لا يعصى أمرك، ولا يخالف رأيك، ولا يُقْطع أمر دونك؛ فأنت سيد من سادات المسلمين، لا ينكر فضلُك، ولا يستغنى عن رأيك». وعندما تسلم أبو عبيدة خطاب خالد قال: «بارك الله خليفة رسول الله ﷺ فيما رأى، وحيا الله خالدًا»(١٠٢).

فهذه هي الرواية التي نطمئن إليها فيما يتعلق بمن آلت إليه القيادة العامة بالشام في هذه المواجهة الكبرى بين المسلمين والروم في عصر أبي بكر. على أن قيادة خالد للمسلمين في هذه المواجهة الكبرى لم يترتب عليها انفراده باتخاذ القرار، بل اتسمت بالتعاون الكامل بينه وبين القادة المسلمين الذين سبقوه إلى هناك، وعلى رأسهم أبو عبيدة وعمرو بن العاص.

أما القيادة على الجبهة البيزنطية فقد كانت - كما أشرنا- في يد ثيودور

Theodorus شقيق الإمبراطور هرقل. وهذا ما يتفق فيه ثيوفانس مع كثير من مصادرنا العربية التي تحرّف هذا الاسم إلى «تذارق» كما سبق القول(١٠٣). على أن بعض مصادرنا تذكر أن قائد جيش الروم كان يُدْعى «وردان» الذي كان يحكم حمص(١٠٤). وهذا الاسم الذي لا يعرفه ثيوفانس قد يكشف عن الأصل الأرميني لحامله كما يقول جيبون(١٠٥). وتذكر مصادر أخرى أن القائد كان «القُبُقْلار»(١٠٦)؛ وهذه الكلمة تحريف للكلمة اليونانية Cubicularius التي تطلق على الحاجب أو الحارس الشخصي للإمبراطور أو لأحد النبلاء(١٠٧) ويرد اسم «باهان» أيضًا في بعض مصادرنا على أنه قائد جيش الروم في هذه المواجهة(١٠٨)، ولكن ما نجده أحرى بالقبول أن ثيودور (تذارق) كان القائد الأعلى لجيش الروم حينذاك، نظرًا لاتفاق الروايتين العربية والبيزنطية على ذلك. فهو الذي كان يتولى الإشراف العام على العمليات العسكرية. وكان وردان هو القائد الفعلي وكان القبقلار يقوم بدور نائبه.

***

بعد أن تلقى خالد أمر أبي بكر بالتوجه إلى الشام والاضطلاع بمسئولية القيادة العليا للقوات الإسلامية هناك ترك مركزه في «الحيرة»(١٠٩) التي كان قد اتخذها قاعدة للعمليات العسكرية ضد الفرس، متوجهًا إلى الشام في شهر ربيع الآخر سنة ١٣هـ (يونيو ٦٣٤م).

وتختلف مصادرنا كثيرًا حول الطريق الذي سلكه خالد في مسيره من العراق إلى الشام، ويتسع الجدل بين المؤرخين المحدثين في هذا الصدد نظرًا لما يشوب روايات مصادرنا من خلط وتضارب. ولعل من أهم الصعوبات التي تعترض الباحثين المحدثين هنا أن بعض الأماكن أو القبائل التي تذكر مصادرنا أن خالدًا تعامل معها بوجه أو بآخر خلال مسيره هذا إنما ترتبط بالمرحلة الزمنية السابقة حين كان خالد يتولى إدارة معارك المسلمين في العراق. ومن ذلك -على سبيل المثال- حديث تلك المصادر عن معاركه في الأنبار ودومة الجندل ومواجهاته مع بعض قبائل النَّمِر بن قاسط وتغلب. والحق- كما يلاحظ دونر Donner- أن من

ينظر إلى الهدف من مسير خالد إلى الشام لا يسعه إلا أن يستبعد هذه المعارك؛ لأن أبا بكر أمره أن يتوجه من فوره إلى المسلمين في الشام نجدةً لهم «وعزم عليه واستحثه في السير»(١١٠) ؛ وهذه المعارك التي تستغرق شهورًا تتنافى مع هذا الهدف وتفوِّت الغرض الذي سعى خالد من أجله(١١١) .

على أن ما يمكننا أن نستنتجه من خلال تضارب الروايات أن خالدًا بعد أن غادر الحيرة اتجه إلى عين التمر. وقد آثر ألا يأخذ الطريق الجنوبي السهل الذي تسلكه القوافل المتجهة إلى الشام، وهو طريق دومة الجندل؛ نظره لبعده. أما الطريق الشمالي الممتد عبر الفرات فقد آثر أن يتجنبه أيضًا لما به من حاميات بيزنطية عديدة قد تتسبب في تأخير نجدته للمسلمين في حال اشتباكه معها. ومن هنا سأل خالد مستشاريه: «كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم؛ فإني إن استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين؟»(١١٢) فأشاروا عليه بطريق بديل، لكنه محفوف بالأخطار، يمر عبر بادية السماوة؛ ممتدًا من مكان يقال له «قُراقر» إلى مكان يقال له: «سُوى» وهو «على جانبها الآخر مما يلى الشام»(١١٣) . فلم يجد خالد بُدًّا من اقتحام هذه المخاطرة. وقد صحبه خلال اجتيازه أرض السماوة دليل عارف بمسالكها وهو رافع بن عَميرة الطائي. وبعد أن انتهى خالد من هذه الرحلة التي يعدها البعض «أكبر مأثرة عسكرية في التاريخ»(١١٤) دخل حدود الشام ويمَّم شطر القوات الإسلامية بها. وقد دانت له أثناء مسيره عدة مدن ومستوطنات شامية من بينها «أرك» التي صالحه أهلها؛ وتَدْمُر (Palmyra)، تلك المدينة القديمة ذات الشهرة التاريخية الواسعة(١١٥) ، وقد استأمنه أهلها فأمَّنهم على أن يكونوا ذمة. وهكذا استمر في مسيره المظفر حتى أتى «مرج راهط» بالقرب من دمشق، وبها جمع من الغساسنة، فلقى منهم مقاومة يسيرة، ثم صالحه عامتهم وأسلموا(١١٦) . وتشير معظم مصادرنا إلى أن المكان الذي التقى فيه خالد بالقوات الأساسية من الجيش الإسلامي بالشام هو مدينة بصرى (Bostra) عاصمة إقليم حوران، وكانت تتمتع بحصانة واضحة(١١٧) وبها حشود من قوات الروم وأحلافهم من نصارى العرب. وكان

يرابط عليها أبوعبيدة ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة، وقد استعصى عليهم فتحها؛ ولكن «لما قدم خالد بن الوليد على المسلمين بصرى اجتمعوا عليها، وأمّروا خالدًا في حربها»(١١٨) ، ورغم أنها قاومت بعناد فإنها لم تفلح في دفع الجيش الإسلامي عنها، فاستسلم أهلها في رجب١٣هـ (مايو٦٣٤م) وعقدوا مع المسلمين صلحًا تعهدوا بمقتضاه أن يدفعوا الجزية مقابل تأمينهم «على دمائهم وأموالهم وأولادهم»(١١٩) . وقد كانت هذه الجزية- كما يروى ابن عساكر- «أول جزية وقعت بالشام في عهد أبي بكر»(١٢٠) . ومع أن العديد من المؤرخين يذكرون أن بصرى «كانت أول مدينة من مدائن الشام فتحت في خلافة أبي بكر»(١٢١) فالواقع أنها لم تكن كذلك كما تبين لنا من عرضنا السابق؛ ولكن يمكن القول: إن بُصْرَى كانت أول مدينة بالغة الأهمية فتحت بالشام في الفترة المشار إليها. فقد كانت تمثل «ثغر سورية الشرقي»(١٢٢) ، ولهذا أحكم الروم تحصينها. وقد ترتب على الاستيلاء عليها الاستيلاء على جميع إقليم حوران(١٢٣) . ومن هنا كان خضوعها لسلطة الخلافة صدمة حقيقية للروم الذين حاولوا استردادها ففشلوا في مواجهتهم التالية مع المسلمين(١٢٤) . ويرى بعض الباحثين أن استيلاء العرب على حصن بصرى كان في حد ذاته «حادثًا تافهًا لو لم يكن مقدمة لثورة عظمى»(١٢٥) ؛ ذلك أنه كان بداية المواجهات العاصفة بين الإمبراطورية والخلافة، وهي المواجهات التي قُدِّر لها أن تستمر عدة قرون.

كان هرقل في حمص عند استيلاء المسلمين على بصرى. وقد جاء الاستيلاء على بصرى وما ارتبط به من عبور خالد بجيشه إلى الشام وإخضاعه لعدد آخر من المدن والمستوطنات ليضيف أبعادًا أخرى إلى حقيقة التهديد الإسلامي لإمبراطورية الروم بعد العربة والداثن التي سبق لها أن وجهت نظر هرقل إلى الخطر القادم عبر حدود الشام مع شبه الجزيرة العربية رغم النتائج المحدودة لهذه المعركة كما أشرنا إلى ذلك في موضعه. فلم يكن من المستغرب أن يُعِدَّ الإمبراطور العدة لجولة حاسمة مع المسلمين أراد بها أن يستأصل شأفتهم تمامًا من بلاد الشام. وهكذا حدثت المواجهة الكبرى بينه وبين المسلمين في

خلافة أبي بكر. ولكن أين حدثت هذه المواجهة؟ تختلف مصادرنا حول الإجابة عن هذا السؤال.

أجنادين أو اليرموك؟

تتجه معظم مصادرنا المبكرة إلى القول بأن هذه المواجهة الكبرى حدثت في أجنادين. ورغم ما يثيره الموقع الدقيق لأجنادين من خلاف بين الباحثين المحدثين، فإن الذي لا خلاف حوله أنها من فلسطين(١٢٦). والراجح أنها في جنوب فلسطين الذي كان مسرح العمليات الأولى بين المسلمين والروم. وقد اكتسبت هذه المواجهة اسمها - بالطبع- من المكان الذي حدثت به؛ فهي تعرف في مصادرنا باسم يوم أجنادين أو وقعة أجنادين.

ويأتي ابن إسحاق (ت١٥٠هـ)، والواقدي (ت٢٠٧هـ) على رأس المؤرخين الذين يذهبون إلى أن منطقة أجنادين كانت ميدان المواجهة الكبرى بين المسلمين والروم في عصر أبي بكر(١٢٧). ويقول ذلك أيضًا عدد من المؤرخين التالين لهما، ومن أبرزهم ابن سعد (ت٢٣٠هـ)، ومحمد بن عبد الله الأزدي (ت٢٣٤هـ)، وخليفة ابن خياط (ت٢٤٠هـ)، والبلاذري (ت٢٧٩هـ)، واليعقوبي (ت٢٨٤هـ)(١٢٨). والاتجاه الغالب لدى هؤلاء هو أن موقعة أجنادين حدثت في جمادى الأولى سنة ١٣هـ (يوليو ٦٣٤م)، أي في أواخر خلافة أبي بكر، وإن كانوا يختلفون في تحديد التاريخ الدقيق لليوم الذي حدثت فيه هذه الموقعة(١٢٩).

ولكن هناك رواية أخرى تذهب إلى أن المواجهة الكبرى بين المسلمين والروم في عصر أبي بكر حدثت في اليرموك. وهذه هي الرواية التي يقدمها سيف بن عمر، ويأخذها عنه مؤرخون عديدون من بينهم محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، وابن مسكويه (ت٤٢١هـ)، وعدد غير قليل من المؤرخين اللاحقين(١٣٠)، وتابعهم على ذلك أيضًا بعض المؤرخين المحدثين(١٣١). والشهر الذي حدثت فيه الموقعة، طبقًا لهذه الرواية، هو جمادى الآخرة (سنة ١٣هـ).

إن لدينا من الأسباب ما يجعلنا نتردد في قبول رواية سيف بن عمر، ونرجح عليها رواية الواقدي وابن إسحاق التي تذكر أن المواجهة الكبرى بين المسلمين والروم في عصر أبي بكر حدثت في أجنادين (لا في اليرموك):

١- أول هذه الأسباب أن هذه هي الرواية التي تكاد مصادرنا العربية المبكرة والموثَّقة تُجمِع عليها بالإضافة إلى الواقدي وابن إسحاق، فقد أشرنا في هذا السياق إلى ابن سعد والأزدي والبلاذري وغيرهم من المؤرخين المتقدمين. وإجماع هؤلاء على هذه الرواية ينبغي أن يكون له اعتباره عند الحكم على مدى وثاقتها.

٢- وثاني الأسباب أن رواية «ثيوفانس» عن أحداث هذه الفترة- رغم اختصارها واضطرابها- تقدم ما يفيد أن معركة اليرموك حدثت في عصر عمر لا في عصر أبي بكر. ومع أن ثيوفانس لم يذكر اليرموك بالتحديد فإنه ذكر «الجابية»(١٣٢). والمعرف- كما يذكر لامنس H. Lammens- أن اسم «الجابية» أُطلِق على وقعة اليرموك؛ «فقد حدثت بها مناوشات مع الروم كما جمعت بها الغنائم بعد الوقعة. ويفسِّر لنا هذا لم قدم عمر إلى الجابية عام ١٧هـ لينظم فتوحاته الجديدة وبصحبته كبار الصحابة في الحجاز...»(١٣٣).

٣- وثالث الأسباب أن رواية سيف بن عمر كما عرضها الطبري وابن مسكويه وابن الأثير وغيرهم يستشفّ منها أن معركة اليرموك كانت نهاية المعارك الإسلامية الكبرى ضد الروم في عصر الراشدين. فابن الأثير مثلاً- خلال تناوله لأحداث سنة ١٣هـ- يقول بعد حديثه عن استعدادات الروم الهائلة لهذه المعركة: «ثم خرجوا إلى القتال الذي لم يكن بعده قتال في جمادى الآخرة»(١٣٤). والحق أن حروب المسلمين ضد الروم في عصر أبي بكر كانت في بداياتها (وكذلك كانت حروبهم ضد الفرس). فليس من السهل أن نصدِّق أن عصر أبي بكر شهد ضد الروم قتالاً لم يكن بعده قتال ذو شأن؛ ذلك أن معارك المسلمين الأساسية ضد الروم في الشام حدثت في عصر عمر. ومن هنا فإن ما نرجحه أن رواية سيف بن عمر، التي رددها الطبري ومن اقتفى أثره، خلطت بين معركة اليرموك التي حدثت في عصر عمر سنة ١٥هـ (٦٣٦م)، ومعركة أجنادين التي حدثت في عصر أبي بكر في سنة ١٣هـ (٦٣٤م).

٤- ثم إن سيف بن عمر- في عرضه لمعركة اليرموك في أحداث سنة ١٣هـ- يروى أن خالد بن الوليد عندما وصل إلى الشام وانضم إلى القوات

الإسلامية بها اقترح على أمراء هذه القوات أن تكون إمارة الجيش بينهم بالتبادل حتى يتأمروا جميعًا؛ ومما قاله لهم في ذلك: «إن تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ﷺ. هلموا؛ فإن هؤلاء (أي الروم) تهيأوا، وهذا يوم له ما بعده؛ إن رددناهم إلى خندقهم.اليوم لم نزل نردهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها، فهلموا فلنتعاور الإمارة، فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غدًا، والآخر بعد غد، حتى يتأمر كلكم، ودعوني أليكم اليوم. فأمّروه وهم يرون أنها كخرجاتهم...»(١٣٥) . ولكن هذه الرواية تتناقض مع حقيقة تاريخية معروفة وهي أن خالدًا تولى القيادة العامة للجيوش الإسلامية في الشام في تلك الفترة بتأمير أبي بكر له وليس بتأمير قادة الجيوش الإسلامية هناك، وظل في موقعه حتى تولى عمر فعزله بأبي عبيدة، فالرواية التي أوردناها الآن كان يمكن قبولها لو أنها كانت تشير إلى عصر عمر لا عصر أبي بكر.

***

نَخْلُص - إذن- إلى أن أجنادين كانت هي مسرح المواجهة الكبرى بين المسلمين والروم في آخر عصر أبي بكر، وإلى أن القائد العام للجيوش الإسلامية في هذه المعركة كان خالد بن الوليد.

المسير إلى أجنادين، وأهم نتائج المعركة:

ذكرنا أن خالدًا بعد وصوله إلى الشام انضم بجيشه إلى جيش أبي عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وشُرَحْبيل بن حسنة الذين كانوا يحاصرون مدينة بُصْرى. وبعد أن استولى المسلمون على هذ المدينة بقيادة خالد توجه الجميع إلى أجنادين بفلسطين حين علموا أن الروم جمعت جموعها هناك استعدادًا لخوض معركة فاصلة ضد المسلمين بالشام. وكان عمرو بن العاص حينذاك يعسكر في «وادي عربة» بفلسطين، ولم يكن جيشه بمنأى عن تعرضه لضربة قاضية من الروم المحتشدين على مقربة منه. ومن هنا كان على خالد أن يسرع بقواته إلى جنوب فلسطين، ثم لم يلبث عمرو أن انضم بجيشه إليه، واحتشد الجميع في سهل

أجنادين انتظاراً للمواجهة الكبرى مع الروم وحلفائهم من عرب الشام.

وفي أجنادين دارت رحى معركة طاحنة بين المسلمين والروم هي - كما يرى الأزدي- «أول وقعة عظيمة كانت بالشام»(١٣٦) . وقد تولى القيادة العملية لجيش الروم - كما أشرنا- وردان حاكم حمص، وكان «القبقلار» Cubicularius يعاونه ويقوم بدور نائبه، أما القائد الأعلى فقد كان ثيودور(١٣٧).

ورتب خالد جيشه ميمنة وميسرة وقلبًا وجناحين؛ فجعل في القلب معاذ ابن جبل، وفي الميمنة عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق، وفي المسيرة سعيد بن عامر(١٣٨) ، وفي الجناح الأيسر شُرَحْبيل بن حسنة، وفي الساقة (أو مؤخرة الجيش) يزيد بن أبي سفيان «في أربعة آلاف فارس حول الحريم والأولاد»(١٣٩)، وعلى الخيل سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، و«كان من أشد الناس، وكان من المهاجرين الأولين، وكان أحد العشرة الذين بشرهم رسول الله ﷺ بالجنة»(١٤٠) .

ولم يُغْفل خالد أهمية الجانب المعنوي في تحقيق النصر؛ فقد مشى بين جنوده يُلهب حماستهم الدينية، ويُذْكِي روح الاستبسال في نفوسهم، ويدرأ عنهم الخوف من ضخامة جيش الروم قائلاً: «لا يهولنَّكم ما ترون من كثرتهم، فإن الله منزلٌ عليهم رجزه وعقابه»(١٤١) . كما أمر نساء المسلمين أن يَقُمن من وراء الناس، «فكلما مرّ بهن رجل من المسلمين دفعن أولادهن إليه وقلن له: قاتلوا دون أولادكم ونسائكم»(١٤٢) .

وبدأ القتال بالمبارزات، فأبلى المسلمون في ذلك بلاءً حسنًا، وخاصة ضرار ابن الأزور(١٤٣) الذي تروي بعض مصادرنا أنه قتل وحده من العدو ثلاثين فارسًا(١٤٤) . ثم حمل الروم على ميمنة المسلمين وميسرتهم، فلم يتزحزح منهم أحد. وهنا صاح خالد في فرسان المسلمين: «احملوا - رحمكم الله - على اسم الله»، فحملوا على الروم حملة صادقة بددت شملهم؛ فانهزموا هزيمة شديدة، «وقتلهم المسلمون كيف شاؤوا، وأصابوا عسكرهم وما فيه»(١٤٥) . ولعل مما أضعف الروح المعنوية لدى الروم وعجَّل بهزيمتهم مقتل قائدهم

«وردان»، ثم مقتل نائبه «القبقلار»، فولوا الأدبار. وقد طاردهم المسلمون أثناء فرارهم وقتلوا منهم في المطاردة أعدادًا كبيرة، وتحصّن من نجا منهم ببيت المقدس وقيسارية ودمشق وحمص(١٤٦) .

وتختلف مصادرنا في تقديرها لعدد قتلى الروم في أجنادين؛ فتذكر بعض الروايات أن المسلمين قتلوا منهم أثناء المعركة ثلاثة آلاف، بالإضافة إلى من قتلوهم وهم يلاحقونهم أثناء فرارهم من الميدان(١٤٧). وترفع بعض الروايات الأخرى هذا الرقم إلى خمسين ألفًا(١٤٨) ، ويقبله بعض الدراسين الغربيين(١٤٩)، ولكن طابع المبالغة واضح فيه تمام الوضوح؛ فالجيش الإسلامي كله في أجنادين لم يصل إلى هذا الرقم. ولم تكن هناك وسيلة موثوق بها لدى المسلمين للحصول على إحصاء دقيق لقتلى العدو؛ فالتقدير في أحيان غير قليلة يكون جزافيًا. أما قتلى المسلمين فتروي بعض المصادر أنهم بلغوا زهاء أربعمائة وخمسين رجلاً(١٥٠) ، وهو رقم مقبول لا أثر فيه للمبالغة قلة أو كثرة. ومن أبرز من قتلوا في ذلك اليوم عكرمة بن أبي جهل، وهشام بن العاص بن وائل (أخو عمرو بن العاص)، والحارث بن هشام بن المغيرة، وعمرو بن سعيد بن العاص ابن أمية وأخوه أبان(١٥١) .

ترتبت على معركة أجنادين نتائج بالغة الأهمية في مجال الصراع الإسلامي البيزنطي، فقد أحدثت هزيمة الروم فيها تأثيرًا نفسيًا قاسيًا على هرقل. فلما انتهى إليه خبر هذه الوقْعة- كما يذكر البلاذري- «نُخِبَ قلبُه، وسُقِطَ في يده، وملئ رعبًا، فهرب من حمص إلى أنطاكية»(١٥٢) . ذلك أن هذه المَعركة كانت أول مواجهة كبرى بين الروم والمسلمين، وكانت- كما يصفها بعض المؤرخين- «إحدى ملاحم الروم التي أبيدوا فيها»(١٥٣) . وقد زلزلت تلك الهزيمة كيانهم، وأفقدتهم توازنهم، وزعزعت لديهم الثقة في قدرتهم على مواجهة ذلك العدو الذي لم يقدرُوه حق قدره قبل ذلك.

أما تأثير هذه المعركة على المسلمين فقد كان عكس ذلك تمامًا. فلاشك أنها رفعت معنوياتهم، ومنحتهم مزيدًا من الثقة في قدراتهم، وأقْنَعَتْهم أن بإمكانهم

التصدي لتلك القوة العظمى وهي قوة الروم وإحراز النصر عليهم في مواجهات أخرى لاحقة، ومن ثَمَّ فتحت الطريق أمامهم لإتمام فتح الشام، وهذا ما حدث في عصر الخليفة الثاني عمر بن الخطاب.

حدثت موقعة أجنادين قبل وفاة أبي بكر بأربعة وعشرين يومًا؛ فقد توفى أبو بكر في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٣هـ (٦٣٤م)، وانتهت الموقعة في الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة ١٣هـ (٣٠ من يوليو سنة ٦٣٤م)(١٥٤) . فماذا كان الموقف على الجبهة الإسلامية البيزنطية في أعقاب أجنادين قبل وفاة أبي بكر؟

رابعًا: الموقف على جبهة الصراع بين المسلمين والروم عند وفاة أبي بكر:

تتضارب الروايات في مصادرنا حول تطور الصراع بين المسلمين والروم بعد أجنادين حتى وفاة أبي بكر. فيذكر محمد بن عبدالله الأزدي أن خالد بن الوليد أمر الناس بعد موقعة أجنادين أن يسيروا إلى دمشق (لضرب الحصار عليها)، ففعلوا. وبعد أن وزع خالد قادة القوات الإسلامية على أبواب المدينة (أو جهاتها) المختلفة للمرابطة عليها فوجئ المسلمون بوصول جيش من الروم عدته خمسة آلاف مقاتل لإغاثة أهل دمشق، وقد خرج إليهم أهل القوة والشدة من دمشق، ولحق بهم عدد من أهل حمص، فبلغ القوم أكثر من عشرة آلاف، «فلما نظر إليهم خالد عبَّأ لهم أصحابه كتعبئة يوم أجنادين»(١٥٥) ، واشتبك الفريقان في معركة طاحنة دارت رحاها في «مَرْج الصُّفَّر» على مشارف دمشق(١٥٦) ، وانتهت بهزيمة الروم هزيمة ساحقة، فولوا الأدبار وذهبوا على وجوههم، «فمنهم من دخل مدينة دمشق مع أهلها، ومنهم من رجع إلى حمص، ومنهم من لحق بقيصر(١٥٧) ». وقتل من الروم في هذه الموقعة خمسمائة، وأُسِرَ منهم نحو ذلك. وقد عاد المسلمون بعد ذلك لضرب الحصار على دمشق. والتاريخ الذي حدثت فيه موقعة «مرج الصُّفَّر»- طبًا لرواية الأزدي- هو الثامن عشر من جمادى الآخرة سنة ١٣هـ (أغسطس ٦٣٤م)؛ أي قبل وفاة أبي بكر بأربعة أيام(١٥٨) . ونجد فحوى هذه الرواية عند اليعقوبي الذي

يقول: «وقد كان خالد بن الوليد ومن معه من المسلمين فتحوا مرج الصُّفَّر من أرض دمشق وحاصروا دمشق قبل وفاة أبي بكر بأربعة أيام»(١٥٩) .

ويذكر خليفة بن خياط- في روايته عن محمد بن إسحاق - أن وقعة مرج الصفر حدثت «يوم الخميس لاثنتي عشرة (ليلة) بقيت من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة، والأمير خالد بن الوليد»(١٦٠) . ورغم أن هذه الرواية تتفق مع رواية الأزدي ورواية اليعقوبي في أن معركة مرج الصُّفَّر حدثت في أواخر حياة أبي بكر فإنها تختلف عنهما في أنها تجعل مرج الصُّفَّر سابقةً على أجنادين لا تالية لها.

أما البلاذري فيذكر أن الروم بعد أجنادين جمعوا جموعًا بالياقوصة (أو الواقوصة)، «فلقيهم المسلمون هناك، فكشفوهم وهزموهم وقتلوا كثيرًا منهم، ولحق فَلُّهم بمدن الشام، وتوفى أبو بكر رضي الله عنه في جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة، فأتى المسلمين نعيه وهم بالياقوصة»(١٦١) .

ويذكر الطبري في إحدى رواياته (وهي عن أبي زيد عن علي بن محمد بإسناده) ما لا يختلف كثيرًا عن رواية البلاذري. فبعد أن توافى المسلمون والروم بأجنادين- طبقًا لهذه الرواية- «التقوا يوم السبت لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة، فظهر المسلمون، وهزم الله المشركين... ثم رجع هرقل للمسلمين، فالتقوا بالواقوصة، فقاتلوهم وقاتلهم العدو، وجاءتهم وفاة أبي بكر وهم مصافُّون... وكان هذه الوقعة في رجب»(١٦٢) .

ولا تقدم لنا المصادر غير العربية في هذا الصدد مادة ذات بال. فرواياتها عن الفتوحات الإسلامية المبكرة شديدة الاختزال، كما أنها مضطربة في عرضها الزمني للأحداث. وهي - كما يلاحظ بعض الباحثين الغربيين- لا تستقي مادتها من مصادر مستقلة؛ بل تعتمد في الأساس على المصادر العربية دون أن تراعي الدقة فيما تأخذه منها(١٦٣) . وأوضح مثال لهذه المصادر غير العربية حولية «ثيوفانس» وحولية «ميخائيل السرياني».

إن ما نراه أقرب إلى القبول- من خلال المقارنة بين الروايات المتضاربة التي

عرضناها آنفًا- هو رواية الأزدي واليعقوبي؛ وخلاصتها - كما ذكرنا- أن المسلمين بعد انتصارهم في أجنادين توجهوا إلى دمشق لحصارها. وعندما أرسل هرقل جيشًا لنجدة أهلها المحاصرين تعامل معه المسلمون بقيادة خالد بن الوليد، وأنزلوا به هزيمة فادحة في مرج الصُّفَّر بالقرب من دمشق قبل وفاة أبي بكر بأربعة أيام. ثم استأنف المسلمون حصار دمشق، وتوفى أثناء ذلك أبو بكر، وكانت وفاته- طبقًا لأشهر الروايات- في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٣هـ (أغسطس ٦٣٤م).

واهتمام المسلمين بأمر دمشق وتوجههم لحصارها بعد أجنادين له ما يبرره؛ فدمشق قصبة الشام كما يقول ياقوت(١٦٤) ، وهي «حصن الشام وبيت مملكتهم» على حد تعبير عمر بن الخطاب(١٦٥) ، والسيطرة عليها تمثل خطوة مهمة في سبيل السيطرة على الشام كله. ومن هنا فإن معركة مرج الصفر أثناء حصار دمشق وبعد معركة أجنادين تأتي في سياقها الطبيعي. فمما يتسق مع التطور المنطقي للأحداث أن يرسل إمبراطور الروم قوة يغيث بها أهل دمشق المحاصرين فتدور تلك المعركة على مشارف دمشق. وليس من المتصور أن تكون مرج الصفر قد حدثت قبل توجه المسلمين إلى أجنادين، كما جاء في رواية خليفة ابن خياط عن محمد بن إسحاق؛ فقد حشد الروم جموعهم الأساسية في أجنادين استعدادًا لمواجهة المسلمين هناك؛ فلم يكن ثمة ما يدعو إلى الدخول في معركة جانبية قبل أجنادين. أما بعد أجنادين فقد توجهت فلول الروم إلى عدد من الأماكن للتحصن بها، ومن بينها دمشق. ومن المعقول بعد أن حاصر المسلمون دمشق أن تدور معركة مرج الصفر على مشارفها في محاولة من الروم لإغاثة أهل دمشق.

أما رواية البلاذري القائلة بأن المسلمين التقوا بجموع الروم بالواقوصة بعد معركة أجنادين، وأنهم أُبلغوا هناك بوفاة أبي بكر فنحن نتردد كثيرًا في قبولها. فقد ارتبطت الواقوصة بمعركة اليرموك في عصر عمر(١٦٦) . والملاحظ أن البلاذري - اعتمادًا على ما يرويه عن الواقدي- يضع موقعة مرج الصفر في

المحرم سنة ١٤هـ (فبراير ٦٣٥م)، أي في خلافة عمر بن الخطاب[١٦٧] . والحق أن أصعب ما يواجهه الباحث في تلك الفترة هو ضبط التواريخ الدقيقة لأحداثها في خضمٍ روايات شديدة التعارض، فلا يجد أمـامه من سبيل إلا محاولة إعادة تركيب الأحداث في ضوء ما يؤديه إليه اجتهاده، وهو قابل للخطأ أو الصواب.

***

عندما تولى عمر خلافة المسلمين بعـد وفاة أبي بكر اتخذ قراره بعزل خالد ابن الوليد عن القيادة العامة لجيوش المسلمين بالشام وولى مكانه أبا عبيدة. وفي عصر عمر وصل الصراع الإسلامي ضد الروم إلى مداه، ففُتِحتْ دمشق في سنة ١٤هـ (٦٣٥م)، ثم جـاءت معـركة اليـرموك الفـاصلة في سنة ١٥هـ (٦٣٦م) لتُخضع الشام كله لسلطان المسلمين بعد حدوثها بزمن غير طويل.

***

خاتمة

نستطيع - في نهاية هذا البحث - أن نستخلص عدداً من الملاحظات الأساسية نجملها فيما يلي.

١- لم يكن قرار غزو الروم في عصر أبي بكر قراراً أَمْلَتْه رغبة العرب الجياع في السلب والنهب وتحصيل الغنائم، أو الاستجابة للنزعة القتالية المتأصلة لديهم- كما يعتقد بعض الباحثين الغربيين- بل جاء استجابة لما مثلته دولة الروم من تهديد لصميم الوجود الإسلامي. وقد رأينا كيف استدرج الروم خالد بن الوليد إلى معركة لم يكن يرغب فيها، وهي معركة الفراض، عندما كان يطارد القبائل العربية المتحالفة مع الفرس في منطقة الفرات على الحدود الشامية. كما فعلوا الشيء نفسه مع خالد بن سعيد بن العاص الذي أرسله أبو بكر إلى أطراف شبه الجزيرة العربية على حدود الشام في محاولة منه لكسب ولاء القبائل العربية هناك ونشْر الإسلام بينها؛ ولكن الروم استدرجوا خالد بن سعيد إلى معركة انتهت بهزيمته هزيمة فادحة في أواخر سنة ١٢هـ (ربيع سنة ٦٣٤م)، «وعند ذلك اهتاج أبو بكر للشام وعناه أمره» كما روينا عن الطبري. وقد تبيَّن لنا خلال ذلك أن المسلمين كانوا يتهيبون الروم ويكرهون لقاءهم، وأنهم اضطروا إلى ذلك اضطراراً تحت وطأة تهديداتهم. ويوضح ذلك ما يرويه المؤرخون من أن أبا بكر لما فكر في مواجهة تهديدات الروم «شاور جماعة من أصحاب رسول الله فقدَّموا وأخَّروا»، وكان مما قاله له عبد الرحمن بن عوف: «إنها الروم وبنو الأصفر! حدٌّ حديد وركن شديد»! فالاشتباك مع تلك القوة العظمى في حرب لا ضرورة لها كان بعيداً كل البعد عن رغبة المسلمين الحقيقية.

٢- تتسم المصادر العربية التي تؤرخ لتلك الفترة بالتضارب الشديد في رواياتها، وخاصة فيما يتصل بالترتيب الزمني للأحداث. أما المصادر غير العربية- وهي اليونانية والسريانية- فهي شديدة الاختزال، فضلاً عن أنها لا

تقدم مادة مستقلة يمكن التعويل عليها في ترجيح رواية عربية على أخرى. ومن هنا يواجه الباحث صعوبة شديدة في تركيب الأحداث بصورة يطمئن إليها؛ وهو يجتهد في ذلك اجتهادًا قد يخطئ فيه وقد يصيب.

٣- رجحنا أن أبا بكر أرسل الجيوش الإسلامية لغزو الشام في بداية سنة ١٣هـ (٦٣٤م)، وأن هذه الجيوش كانت أربعة لا ثلاثة، على كل منها أمير، وأن القيادة العامة على هذه الجيوش عند اجتماعها أنيطت بأبي عبيدة عامر بن الجراح.

٤- حدث أول قتال بالشام- بعد انطلاق تلك الجيوش- في منطقة العَرَبَة والداثن في جنوب فلسطين. وقد رجحنا أن القيادة في هذا القتال كانت في يد يزيد بن أبي سفيان لا عمرو بن العاص، كما لاحظنا أن الأهمية الحقيقية لمعركة العربة والداثن، التي هُزم الرومُ فيها هزيمة فادحة، تكمن في أنها لفتت نظر هرقل إلى أن المسلمين خَصْمٌ لا يُستهان به؛ ومن ثم حشد حشوده الضخمة في أجنادين طمعًا في أن يوجه إلى المسلمين ضربة لا تقوم لهم بعدها قائمة.

٥- كانت «أجنادين»، لا «اليرموك»، هي ميدان أول مواجهة كبرى بين المسلمين والروم. وقد كان إحساس المسلمين بخطورة هذه المواجهة وراء اتصالهم بأبي بكر يحيطونه بضخامة حشود الروم ويستمدونه، فأمدهم بخالد بن الوليد وأناط به مسئولية القيادة العليا بدلاً من أبي عبيدة. وقد كانت هزيمة الروم الساحقة في هذه المعركة خطوة مؤكدة نحو اتمام فتح الشام كله خلال سنوات معدودة.

٦- ما رأيناه أكثر اتساقًا مع التسلسل الطبيعي للأحداث أن المسلمين بعد انتصارهم في أجنادين توجهوا بقيادة خالد بن الوليد لمحاصرة دمشق. وقد حاول هرقل إغاثة أهل دمشق المحاصرين فأرسل إليهم نجدة عسكرية، ولكن المسلمين هزموها في «مرج الصُّفَّر» بالقرب من دمشق، ثم استأنفوا حصارهم

للمدينة. وقد توفي أبو بكر في أثناء ذلك، وتولى عمر فعزل خالدًا عن القيادة العامة وولى مكانه أبا عبيدة، واقتفى خطى سلفه في سياسته تجاه الروم.

٧- لعله اتضح لنا أن خلافة أبي بكر - رغم قصرها - كانت بالغة الأهمية في تاريخ العلاقة بين المسلمين والروم. فقد وضع أبو بكر- في العام الثاني من خلافته- الخطوط العريضة لهذه العلاقة، ومهد الطريق- بذلك - أمام عمر للقضاء التام على التهديد البيزنطي للمسلمين في الشام ثم في مصر. فإذا كان عمر قد حقق الإنجازات الهائلة في هذا الميدان، فإن أبا بكر هو الذي أرسى الأساس الراسخ لهذه الإنجازات .

***

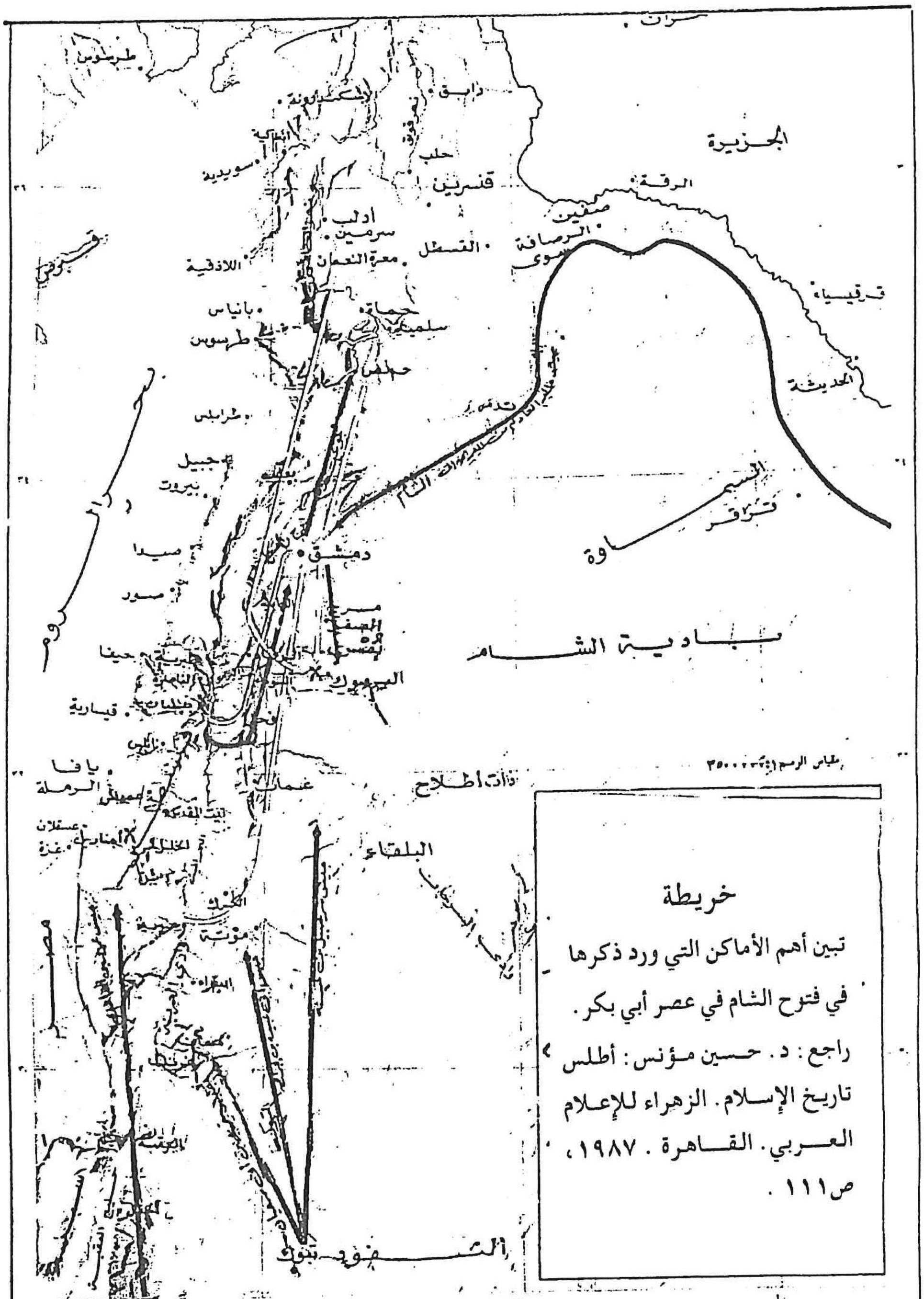

خريطة

تبين أهم الأماكن التي ورد ذكرها في فتوح الشام في عصر أبي بكر.

راجع: د. حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام. الزهراء للإعلام العربي. القاهرة. ١٩٨٧، ص١١١.

هوامش البحث

(١) تولى أبو بكر الخلافة في الثاني عشر من ربيع الأول سنة ١١هـ في اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ، وظل في منصبه حتى وفاته لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ١٣هـ.
انظر: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (دار المعارف، القاهرة: ١٩٧٩)، جـ٣، ص ٢٠٧، ٢١٥، ٤٢٠ .

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى (دار صادر، بيروت: ١٩٥٨)، جـ٢، ص١٢٨ .

(٣) لمزيد من التفاصيل ارجع إلى: الطبري، مصدر سابق، جـ٣، ص ٣٦-٤٠ .

(٤) انظر: الواقدي: كتاب المغازي، بتحقيق مارسدن جونس (عالم الكتب، بيروت: ١٩٨٤)، جـ٣، ص١٠١٩ .

(٥) نفس المصدر ، جـ٣، ص ١١٢١ .

(٦) نفس المصدر والصفحة .

(٧) انظر: الطبري، مصدر سابق، جـ٣، ص ١٨٤ .

(٨) حول اختلاف الروايات في ذلك ارجع إلى: البلاذري: أنساب الأشراف، بتحقيق محمد حميد الله (دار المعارف، القاهرة: ١٩٨٧)، جـ١، ص ٤٧٣؛ تاريخ اليعقوبي (دار صادر، بيروت: ١٩٩٢)، جـ٢، ص ١٢٧؛ تاريخ خليفة بن خياط، بتحقيق الدكتور سهيل زكار (دار الفكر، بيروت: ١٩٩٣)؛ ص ٦٤؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ (دار صادر، بيروت: ١٩٨٢)، جـ٢، ص ٣٣٦ .

(٩) انظر تفاصيل حركة الردة في: الطبري، مصدر سابق، جـ٣، ص٢٤٣ - ٣٣٩ .

(١٠) انظر: ياقوت: معجم البلدان، بتحقيق فريد عبد العزيز الجندي (دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٩٠)، جـ٤، ص ٢٧٦- ٢٧٧ .

(١١) انظر: الطبري، مصدر سابق، جـ٣، ص٣٤٣ .

(١٢) وهي قبائل تغلب وإياد والنَّمِر . انظر: نفس المصدر والجزء، ص ٣٨٣ .

(١٣) يقول الطبري: «فقتل يوم الفِراض في المعركة وفي الطلب مائة ألف». مصدر سابق، جـ٣، ص٣٨٤ .

(١٤) حول معركة الفراض ارجع إلى: الطبري، مصدر سابق، جـ٣، ص ٣٨٣-٣٨٤؛ ابن الأثير، مصدر سابق، جـ٢، ص٣٩٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، بتحقيق الدكتور أحمد أبو ملحم وآخرين (دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٨٥)، جـ٦، ص ٣٥٦ . وانظر أيضًا:
Muir, W. The Caliphate: its Rise, Decline and Fall. Edinburgh, 1924. p. 62 .

(١٥) انظر: ابن سعد: مصدر سابق، جـ٤، ص ٩٥- ٩٦؛ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة (دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت)، جـ١ ص٤٠٦ . والذين يعدونه خامسًا يعدون قبله علي بن أبي طالب وأبابكر وزيد بن حارثة وسعد بن أبي وقاص. والواضح أنهم يعدونه خامسًا بين الرجال لأن خديجة كانت أول من أسلم من أهل الأرض جميعًا.

(١٦) ابن سعد، مصدر سابق، جـ٤، ص ٩٦ .

(١٧) الطبري، مصدر سابق، جـ٣، ص٣٨٦ . ويذكر الطبري أن عمر هو الذي شجع أبا بكر على عزل خالد بن سعيد لأن خالدًا تلكأ في بيعة أبي بكر. ويروى الطبري في هذا الصدد أن خالدًا لقي عليًّ بن أبي طالب فقال: «ياأبا الحسن، يابني عبد مناف، أغُلبتم عليها؟» فقال علي: «أمغالبة ترى أم خلافة؟». مصدر سابق، جـ٣، ص ٣٨٨ . وانظر أيضًا: البلاذري، مصدر سابق، جـ١، ص ٥٨٨، مع اختلاف يسير في العبارة.

(١٨) تيماء بلدة صغيرة قديمة في واحة في شمال شبه الجزيرة العربية على مسيرة أربعة أيام إلى الجنوب من دُومة الجَندل، وكانت منزل اليهود أو المتهودين كالسموأل. انظر: بول Buhl، مادة تيماء في دائرة المعارف الإسلامية (طبعة دار الشعب بالقاهرة)، جـ١٠، ص ٢٦٥- ٢٦٦ .

(١٩) الطبري، مصدر سابق، جـ٣، ص ٣٨٩ .

(٢٠) نفس المصدر والجزء، ص ٤٠٨ .

(٢١) اليعقوبي، مصدر سابق، جـ٢، ص١٣٣ .

(٢٢) انظر: البلاذري، مصدر سابق، جـ١، ص ١٠٨ . وشرحبيل بن حسنة هو أحد الأمراء الذين سوف يرسلهم أبو بكر لغزو الشام كما سنذكر بعد قليل.

(٢٣) انظر: الأزدي: فتوح الشام، بتحقيق عبد المنعم عبد الله عامر (مؤسسة سِجل العرب، القاهرة: ١٩٧٠)، ص ٦ - ٧، ص ٢١ - ٢٢ .

(٢٤) ابن مسكويه: تجارب الأمم (ليدن: ١٩٠٩)، جـ١، ص٣٠٩ .

(٢٥) حول سرية عبدالرحمن بن عوف إلى دومة الجندل في شعبان سنة ٦هـ (ديسمبر ٦٢٧م) ارجع إلى: الواقدي، مصدر سابق، جـ٢، ص ٥٦٠-٥٦٢؛ ابن سعد، مصدر سابق، جـ٢، ص٨٩؛ البلاذري، مصدر سابق، جـ١، ص ٣٧٨ .

(٢٦) ابن الأثير، مصدر سابق، جـ٢ ، ص ٤٢٠ . وحول أهداف حملة خالد بن سعيد انظر أيضًا:

Muir, W., op. cit., p. 64. Cf., Donner, F. The Early Islamic Conquests. Princetion, 1981, p. 113 .

(٢٧) الطبري، مصدر سابق، جـ٣، ص ٣٩٢ . ويتضح من العبارة الأخيرة أن عليًا كان يشارك عمر رأيه في خالد.

(٢٨) انظر ص ٥٩ فيما سبق.

(٢٩) انظر: الواقدي، مصدر سابق، جـ٣، ص ١١٢٤ . والبلقاء اسم يطلق إما على الإقليم الأردني بأسره، وإما على الجزء الأوسط منه، وأهم مدينة فيه هي عمّان. انظر: مادة البلقاء في: دائرة المعارف الإسلامية (طبعة دار الشعب بالقاهرة)، جـ٨، ص ٢٠ .

(٣٠). Syed Ameer Ali, A Short History of the Saracens. London, 1961, p. 34

(٣١) Irving, Washington, Mahomet and his Successors. London, 1985,

Muir, op. cit., p. 43.

(٣٢) Muir, op. cit., p. 43.

(٣٣) حول رأي كايتاني ارجع إلى:

Vasiliev, A. A., History of the Byzantine Empire. Wisconsin, 1952, p. 208 .

(٣٤) Hitti, Philip K., History of Syria . London, 1957, p.4 .

(٣٥) Hitti, The Arabs: A Short History. London, 1960, p. 45 .

(٣٦) للمزيد من التفصيل ارجع إلى: Donner op. cit., p. 4

هذا؛ ومن الملاحظ أن بعض الباحثين الغربيين يجمع بين العاملين السابقين في حديثه عن أسباب التوسع الإسلامي؛ فنجد هيوكيندي H. Kennedy مثلاً يذكر أن العرب الذين مثلت الحروب القبلية جزءًا من حياتهم في الجاهلية كان لابد لهم من أن يبحثوا عن عدو خارجي ينفّسون من خلاله عن طاقاتهم القتالية، كما أن الغزو عند هؤلاء العرب أصبح وسيلة لنعيم مادي دنيوي ولنعيم أخروي. ولم يكن من الممكن للدولة الإسلامية بالمدينة أن تُحكم قبضتها على العرب في أنحاء شبه الجزيرة دون أن تشغلهم بالغزو؛ ولهذا رفعت شعار: التوسع من أجل البقاء Expand and Survive. لمزيد من التوسع انظر:

Kennedy, Hugh, The Prophet and the Age of the Caliphates. London, 1986, p.59.

(٣٧) انظر: الواقدي، مصدر سابق، جـ٣، ص٩٩٠ .

(٣٨) من الجدير بالذكر أن دونر Donner في بحثه القيم عن «الفتوحات الإسلامية الأولى» تناول بقدر من التفصيل أسباب التوسع الإسلامي، وعرض أهم آراء الباحثين الغربيين في هذا الصدد وفندها، وانتهى إلى أن الفتوح الإسلامية المبكرة قامت على أساس أيديولوجي، أي أن

الدين لعب الدور الأساسي في توجيه هذه الفتوح. انظر: Donner, op. cit., pp. 3-9. وقد يكون من الضروري هنا أن نحدد دور الدين في الفتوحات الإسلامية تحديدًا لا لبس فيه. ذلك أننا نتردد كثيرًا في قبول الرأي الذي يذهب إلى أن الفتوحات الإسلامية كانت تهدف إلى نشر الإسلام؛ فما أمر الإسلام أتباعه بأن ينشروه بالغزو والقهر. ولكننا - مع ذلك - نستطيع القول: إن الإسلام لعب الدور الأساسي في الفتوحات الإسلامية إذا فهمنا من ذلك أن هذه الفتوحات كانت تهدف إلى حماية الدولة الإسلامية من الأخطار التي أحاطت بها وهددتها في صميم وجودها، وإلى حراسة العقيدة من كيد المتآمرين.

(٣٩) انظر تفاصيل ذلك في: الأزدي، مصدر سابق، ص ١-٦ . وانظر أيضًا: ابن عساكر، مصدر سابق، جـ١ ص ٤٤٣-٤٤٤ .

(٤٠) اليعقوبي، مصدر سابق، جـ٢، ص ١٣٢ - ١٣٣ .

(٤١) انظر حول ذلك: البلاذري: فتوح البلدان، بتحقيق رضوان محمد رضوان (دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٩١)، ص ١١٥؛ الأزدي، مصدر سابق، ص ٨ وما بعدها؛ ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، بتحقيق صلاح الدين المنجد (دمشق: ١٩٥١)، جـ١ ، ص٤٥٣ . ويذكر ابن عساكر (نفس المصدر والصفحة) أن الجيوش التي جهزها أبو بكر لغزو الشام تكونت من أربعة وعشرين ألف مقاتل.

(٤٢) انظر مثلاً: الطبري، مصدر سابق، جـ٣، ص ٣٨٧، ٣٩٤؛ خليفة بن خياط، مصدر سابق، ص ٧٩؛ المسعودي: التنبيه والإشراف (ليدن: ١٨٩٣)، ص ٢٨٦؛ ابن مسكويه، مصدر سابق، جـ١ ، ص ٣٠٩؛ ابن شاكر الكتبي: عيون التواريخ، بتحقيق: حسام الدين المقدسي (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة: ١٩٨٠)، جـ١ ، ص ٥٠٩؛ ابن الأثير، مصدر سابق، جـ٢، ص ٤٠٥- ٤٠٦ . وحول وجهات هذه الجيوش انظر أيضًا: البلاذري، فتوح البلدان، ص ١١٦ .

(٤٣) البلاذري، مصدر سابق، نفس الصفحة.

(٤٤) انظر على سبيل المثال: اليعقوبي، مصدر سابق، جـ٢، ص١٣٣؛ الطبري، مصدر سابق، جـ٣، ص ٤٠٨ .

(٤٥) البلاذري، مصدر سابق، ص ١١٧ .

(٤٦) نفس المصدر، ص ١١٦ .

(٤٧) تجدر الإشارة هنا إلى أن بعض المؤرخين المحدثين لا يشيرون إلى جيش أبي عبيدة عند حديثهم عن الجيوش التي وجهها أبو بكر إلى الشام. انظر:

Saunders, J., A History of Medieval Islam. London, 1965, pp. 43 - 44; Glubb, J., Great Arab Conquests. London, 1963, p. 131; Hitti , History of Medieval the Arabs, p. 148.

(٤٨) اليعقوبي، مصدر سابق، جـ٢، ص ١٣٣ .

(٤٩) الأزدي، مصدر سابق، ص ٤٨ . وانظر أيضًا: ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٩٢)، جـ٢، ص ٤٩٢ . وفي بعض الروايات ما يشير إلى أن يزيد بن أبي سفيان تولى مسئولية القيادة العامة. انظر: ابن عساكر، مصدر سابق، جـ١، ص ٤٥٣ .

(٥٠) هناك رأي يقول: إن جيش عمرو بن العاص كان أسبق الجيوش الأربعة خروجًا. انظر: ابن عساكر، مصدر سابق، جـ١، ص ٤٤٦ . وانظر ما يلي، ص ٦٧ .

(٥١) الطبري، مصدر سابق، جـ٣، ص ٣٨٧ .

(٥٢) انظر: البلاذري: فتوح البلدان، ص ١١٦ .

(٥٣) انظر: الطبري، مصدر سابق، جـ٣، ص ٣٩٢؛ ابن الأثير، مصدر سابق، جـ٢، ص ٤١٠؛ ابن مسكويه، مصدر سابق، جـ١، ص٣٠٩ . وحول الاختلاف في تقدير أعداد هذه الجيوش، انظر بصفة خاصة: ابن الأثير: نفس المصدر والصفحة. ويذكر البلاذري في الفتوح، ص ١١٦، أن أبا بكر عقد في البداية لكل أمير على ثلاثة آلاف رجل، فلم يزل «يتبعهم الأمداد حتى صار مع كل أمير سبعة آلاف وخمسمائة».

(٥٤) وقد مشى أبو بكر بصحبة يزيد حتى وصل ثنية الوداع، فقال له يزيد: «ياخليفة رسول الله، إما أن تركب، وإما أن أنزل، فقال: ما أنت بنازل وما أنا براكب، إني أحتسب خطاي هذه في سبيل الله». ابن عساكر، مصدر سابق، جـ١، ص ٤٥٧ .

(٥٥) المقصود بالغلول هنا الخيانة في المغنم والسرقة من الغنيمة، ومنه قوله تعالى: ﴿وما كان لنبي أن يَغُلّ﴾ سورة آل عمران: ١٦١ . راجع مادة «غلل» في لسان العرب لابن منظور (طبعة دار المعارف، القاهرة)، جـ٥، ص ٣٢٨٦ .

(٥٦) ابن الأثير، مصدر سابق، جـ٢، ص ٤٠٤-٤٠٥ .

(٥٧) نفس المصدر، ص ٤٠٥ . وتنبغي الإشارة إلى أن مصادرنا تقدم صورًا مختلفة لنص وصية أبي بكر ليزيد. انظر مثلاً: الأزدي، مصدر سابق، ص ١٢ - ١٣ ؛ ابن عساكر، مصدر سابق، جـ١ ، ص٤٥٧، ابن شاكر الكتبي، مصدر سابق، جـ١، ص ٥٠٩ . وانظر أيضًا: كتاب فتوح الشام المنسوب إلى الواقدي، (بتحقيق: طه عبدالرءوف سعد «(دار ابن خلدون: الإسكندرية د.ت)، جـ١، ص٢٣ . ويبدو أن بعض مصادرنا تخلط بين وصية أبي بكر ليزيد ووصيته لأسامة بن زيد حين وجهه في بعثه إلى الشام في صدر خلافته.

(٥٨) تذكر بعض المصادر أنه خرج بعد يزيد بثلاثة أيام. انظر مثلاً: الأزدي، مصدر سابق، ص ١٥ .

(٥٩) انظر: الطبري، مصدر سابق، جـ٣، ص٤٠٥ - ٤٠٦ .

(٦٠) انظر: الأزدي، مصدر سابق، ص ٤٨؛ ابن كثير، مصدر سابق، جـ٧، ص ٣ .

(٦١) ابن عساكر، مصدر سابق، جـ١، ص٤٤٦ .

(٦٢) حاول «جون جلوب» أن يجيب عن هذا السؤال فطرح احتمال أن تكون نقاط المياه في الصحراء سببًا في تفريق الجيوش؛ أو أن يكون السبب في ذلك هو الغيرة المتبادلة بين القواد مما جعلهم لا يرغبون في أن يتجمعوا تحت قائد واحد؛ أو ربما أراد أبو بكر بهذا الغزو أن يكون نوعًا من الغارات المثيرة للقلق لا غزوًا حقيقيًا شاملاً. انظر: J. Glubb, the Great Arab Conquests, p. 132 ولكن كل هذه الاحتمالات لا تثبت للمناقشة؛ فما كانت قلة مواطن المياه في الصحراء سببًا في أن يتوزع الجيش الإسلامي إلى جيوش، وغزوة تبوك في أواخر حياة الرسول ﷺ خير شاهد على ذلك؛ فقد ضمت ثلاثين ألف مقاتل تحت القيادة النبوية الموحدة. أما الغيرة والتحاسد بين القواد فهو سبب ينقضه تاريخ الإسلام في تلك الفترة؛ فلقد قاد أسامة بن زيد وهو دون العشرين جيشًا يضم جلة المهاجرين والأنصار، وعين أبو بكر للمسلمين قائدهم العام عند الاجتماع فقال: «إن جمعتكم حرب فأميركم أبو عبيدة»، ثم جاء خالد بن الوليد إلى الشام في خلافة أبي بكر فتولى القيادة العامة دون أن يثير ذلك أدنى اعتراض من أبي عبيدة، ثم عزل عمر خالدًا عن القيادة العامة وولاها أبا عبيدة، فلم يكن من خالد إلا السمع والطاعة. أما احتمال أن أبا بكر أراد بهذا الغزو أن يكون مجرد غارات فهو غير صحيح؛ لأنه حدد له خطته تمامًا، وطلب من المسلمين التجمع تحت راية واحدة عند مواجهة حشود الروم مجتمعة.

(٦٣) يلتقي وادي عربة بالطرف الجنوبي من البحر الميت. انظر: مصطفى طلاس: سيف الله خالد ابن الوليد (دمشق: ١٩٧٨)، ص ٢٩٢ .

(٦٤) انظر: الطبري، مصدر سابق، جـ٣، ص ٤٠٦؛ ياقوت: معجم البلدان، بتحقيق فريد عبد العزيز الجندي (دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٩٠)، جـ٢ ، ص ٤٧٦ .

(٦٥) Theophanes, Chronographia, translated from the Greek by Cyril Mango and Roger Scott. Oxford, 1997, p. 467 .

(٦٦) انظر: الطبري، مصدر سابق، نفس الصفحة؛ ابن الأثير، مصدر سابق، جـ٢ ، ص ٤٠٥ . وقارن بما في: البلاذري: فتوح، ص ١٧٧ .

(٦٧) See: Donner, op. cit., p. 126. C.f., Hugh Kennedy, op. cit., p. 60.
والملاحظ أن «دونر» يضع شهر ذي القعدة على أنه يقابل فبراير في العام المذكور، والصحيح أنه ذو الحجة .

(٦٨) انظر حمـزة الأصفهـاني: تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء (دار مكتبـة الحيـاة، بيروت، د.ت)، ص ٤٨ - ٤٩ ؛ الطبري، مصدر سابق، جـ٢ ، ص ٢٣٤

(٦٩) الأزدي، مصدر سابق، ص ٥ .

(٧٠) نفس المصدر، ص ٥٢ .

(٧١) البلاذري: فتوح، ص ١١٧ .

(٧٢) انظر: الأزدي، مصدر سابق، ص ٥٢ .

(٧٣) انظر: ابن عساكر، مصدر سابق، ج١ ، ص ٤٦١ - ٤٦٢ .

(٧٤) انظر: الأزدي، مصدر سابق، نفس الصفحة. وانظر أيضًا: ابن حزم: جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى، بتحقيق الدكتور إحسان عباس والدكتور ناصر الدين الأسد، ومراجعة أحمد محمد شاكر (دار إحياء السنة، لاهور، د.ت)، ص ٣٤٢ .

(٧٥) انظر: الأزدي، مصدر سابق، نفس الصفحة؛ والبلاذري، مصدر سابق، نفس الصفحة.

(٧٦) وقد ذكرنا منذ قليل أن القوة الإسلامية التي قامت بالدور الأساسي في هذه المواجهة تكونت من خمسمائة مقاتل بقيادة أبي أمامة الباهلي، وإن كان هذا لا يمنع من أنها تلقت بعض الدعم من «يزيد».

(٧٧) See: Theophanes, op. cit., pp. 466 - 68 .

(٧٨) انظر: الطبري، مصدر سابق، جـ٣ ، ص ٤٠٥، ٤١٧؛ ابن الأثير، مصدر سابق، جـ٢ ، ص ٤٠٦ .

(٧٩) انظر: البلاذري: فتوح ، ص ١٢٠ .

(٨٠) انظر: الطبري، مصدر سابق، جـ٣، ص ٣٩٤ . والجدير بالملاحظة أن الطبري وأمثاله من المؤرخين (انظر مثلاً: ابن شاكر الكتبي، مصدر سابق، جـ١، ص ٥١٠) يذكرون هذا الرقم في معرض حديثهم عن معركة اليرموك، ولكنهم في نفس الوقت ينسبون هذه المعركة إلى عصر أبي بكر لا إلى عصر عمر، وهذا ما سنوضحه في موضعه.

(٨١) انظر: ابن كثير، مصدر سابق، جـ٧، ص ٥ .

(٨٢) انظر: ابن عساكر، مصدر سابق، جـ١، ص ٤٨٢ .

(٨٣) انظر: ابن شاكر الكتبي، مصدر سابق، نفس الصفحة.

(٨٤) See: Michel le Syrien, Chronique de Michel le Syrien, ed. and trans. J. B. Chabot, Paris, 1899 - 1904, vol. 2, p. 421 .

(٨٥) اليعقوبي، مصدر سابق، جـ٢ ، ص ١٣٣ .

(٨٦) البلاذري، مصدر سابق، ص ١١٦ .
(٨٧) نفس المصدر، ص ١١٧ .
(٨٨) نفس المصدر والصفحة .
(٨٩) انظر: ابن سعد، مصدر سابق، جـ٤، ص ١٩٤ .
(٩٠) خليفة بن خياط، مصدر سابق، ص ٧٩ - ٨٠ .
(٩١) الأزدي، مصدر سابق، ص ٤٨ .
(٩٢) نفس المصدر، ص ٦٧ .
(٩٣) انظر: البلاذري، مصدر سابق، ص ١١٧ . وانظر أيضًا: ابن عساكر، مصدر سابق، جـ١ ، ص ٤٤٧ .
(٩٤) انظر: اليعقوبي، مصدر سابق، جـ٢، ص ١٣٣ .
(٩٥) يقول البلاذري، فتوح، ص ١١٨: «لما أتى خالد بن الوليد كتاب أبي بكر وهو بالحيرة خلف المثنى بن حارثة الشيباني على ناحية الكوفة، وسار في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة في ثمانمائة، ويقال في ستمائة، ويقال: في خمسمائة». وراجع أيضًا: الطبري، مصدر سابق، جـ٣ ، ص ٤٠٦؛ والأزدي، مصدر سابق، ص ٧٧ . ويذكر ابن عساكر، مصدر سابق، جـ١ ، ص٤٦٠ و ص ٤٩٨ أن عدد جنود خالد بلغ ثلاثة آلاف. وفي ابن كثير، مصدر سابق، جـ٧، أنهم كانوا تسعة آلاف وخمسمائة. وانظر أيضًا: ابن شاكر الكتبي، مصدر سابق، جـ١ ، ص ٥١٠؛ وابن الطقطقي (محمد بن علي بن طباطبا): الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بعناية محمود توفيق الكتبي(المطبعة الرحمانية، القاهرة: ١٣٣٩هـ) ص ٥٢، وهو يذكر رقم عشرة آلاف.
(٩٦) يذكر ابن الأثير في الكامل، جـ٢، ص ٤٠٧ أن أبا بكر «كتب إلى خالد بن الوليد يأمره بالمسير إليهم (أي إلى المسلمين بالشام) وبالحثّ وأن يأخذ نصف الناس ويستحلف على النصف الآخر المثنى بن حارثة الشيباني».
(٩٧) ابن مسكويه، مصدر سابق، جـ١ ، ٣٠٨ .
(٩٨) نفس المصدر، ص ٣٠٩ - ٣١٠ .
(٩٩) الطبري، مصدر سابق، جـ٣، ص ٤٠٨ . وانظر أيضًا: ابن عساكر، مصدر سابق، جـ١، ص ٤٦٣ .
(١٠٠) الأزدي، مصدر سابق، ص ٦٨ . وانظر أيضًا: ابن عساكر، مصدر سابق، جـ١ ، ص ٤٧٠ .

(١٠١) الأزدي، مصدر سابق، ص ٨٦ . وانظر أيضًا: ابن أبي الدم الحموي (القاضي شهاب الدين إبراهيم): التاريخ الإسلامي المعروف باسم: التاريخ المظفري، تحقيق: د. حامد زيان غانم (القاهرة: ١٩٨٥) ج١، ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(١٠٢) الأزدي، مصدر سابق، ص ٧٢ .

(١٠٣) انظر صفحة ٧٠ من هذا البحث. وانظر أيضًا: Theophanes, op. cit., p. 468

(١٠٤) انظر: الأزدي، مصدر سابق، ص ٨٤، وص ٨٩ . وانظر أيضًا: كتاب فتوح الشام المنسوب للواقدي، مصدر سابق، جـ١، ص ٨٨ - ٨٩ .

(١٠٥) See: Gibbon, The Decline and Fall of the Roman Empire. New York, 1910, vol. 5, p. 314, note 1 .

(١٠٦) انظر: الطبري، مصدر سابق، جـ٣، ص ٤١٧ . وانظر أيضًا: خليفة بن خياط، مصدر سابق، ص ٨٠ ، وهو يحرف الاسم إلى «القنقلار».

(١٠٧) See: Donner, op. cit., p. 129.

(١٠٨) انظر: ابن عساكر، مصدر سابق، جـ١ ، ص ٤٦٠ - ٤٦١ .

(١٠٩) انظر: الطبري، مصدر سابق، جـ٣، ص ٤٠٦، ٤١٥ ؛ والبلاذري، مصدر سابق، ص ١١٨ .

(١١٠) الطبري، مصدر سابق، جـ٣، ص ٣٩٣ .

(١١١) See: Donner, op. cit., p. 120-121.

(١١٢) الطبري، مصدر سابق، جـ٣، ص ٤٠٨ - ٤٠٩ ؛ وابن عساكر، مصدر سابق، جـ١ ، ص ٤٦٤ .

(١١٣) ابن عساكر، مصدر سابق، جـ١، ص ٤٦٥ .

(١١٤) مصطفى طلاس: سيف الله خالد بن الوليد(دمشق ١٣٧٨هـ/ ١٩٧٨م) ص ٢٨٥ .

(١١٥) لمزيد من المعلومات عن هذه المدينة ارجع إلى: بول Buhl: مادة «تدمر» في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة العربية (دار الشعب، القاهرة) جـ٩، ص٢٥٣ - ٢٥٦ .

(١١٦) انظر: الأزدي، مصدر سابق، ٨٢ .

(١١٧) حول مدينة «بصرى» ارجع إلى: Glubb, op. cit., p. 142.

وفي بعض الروايات أن المسلمين كانوا يعسكرون بالجابية. انظر: ابن عساكر، مصدر سابق، جـ١، ص ٤٩٨ .

(١١٨) البلاذري، مصدر سابق، ص ١٢٠ .

(١١٩) نفس المصدر والصفحة .

(١٢٠) ابن عساكر، مصدر سابق، جـ١ ، ص ٤٧٠ .

(١٢١) الطبري، مصدر سابق، جـ٣، ص ٤١٧ . وانظر أيضًا: ابن الأثير، مصدر سابق، جـ٢، ص ٤٠٩؛ وابن مسكويه، مصدر سابق، جـ١، ص ٣١٩ .

(١٢٢) د. جوزيف نسيم يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية (مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية: ١٩٨٤) ص ١١١ .

(١٢٣) انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، تحقيق: فريد عبدالعزيز الجندي (دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٩٠م) جـ١، ص ٥٢٢ .

(١٢٤) انظر: جوزيف نسيم يوسف، مرجع سابق، نفس الصفحة.

(١٢٥) فازيليف: «الإسلام وبيزنطة». مقالة نشرت في كتاب: الإمبراطورية البيزنطية، تأليف نورمان بينز Norman H. Baynes، تعريب د. حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد (لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة: ١٩٥٠) ص ٣٥٤ .

(١٢٦) يذكر ياقوت، مصدر سابق، جـ١، ص ١٢٩ أن أجنادين «موضع معروف بالشام من نواحي فلسطين» ثم يذكر أنها «من الرملة من كورة بيت جَبْرين». ويذكر الطبري، مصدر سابق، جـ٣، ص ٤١٧ ، أن «أجنادين بلد بين الرملة وبيت جَبْرين من أرض فلسطين». وحول صعوبة التحديد الدقيق لموقعها راجع: جب H. A. R. Gibb في مادة «أجنادين» في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة العربية (دار الشعب، القاهرة) جـ٢، ص ٢٤٣ .

(١٢٧) انظر رواية ابن إسحاق في: الطبري، مصدر سابق، جـ٣، ص ٤١٥ وما بعدها؛ وانظر رواية الواقدي في : ابن عساكر، مصدر سابق، جـ١ ص ٤٨٣، وهو يروي عن الواقدي قوله: «واليقين عندنا أن أجنادين كانت في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة، وبُشِّر بها أبو بكر ﷺ وهو بآخر رمق».

(١٢٨) انظر: ابن سعد، مصدر سابق، جـ٤ ، ص ١٩٤؛ الأزدي، مصدر سابق، ص ٩٣ ؛ خليفة ابن خياط، مصدر سابق، ص ٧٩ - ٨٠؛ البلاذري، مصدر سابق، ص ١٢١؛ اليعقوبي، مصدر سابق، جـ٢، ص ١٣٤ .

(١٢٩) راجع المصادر السابقة، نفس المواضع، فهي تتفق على الشهر دون اليوم.

(١٣٠) انظر: الطبري، مصدر سابق، جـ٣، ص ٣٩٤ وما بعدها؛ ابن مسكويه، مصدر سابق، جـ١، ص ٣١٥ . وانظر أيضًا: ياقوت، مصدر سابق، جـ٥، ص ٤٩٧؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر (مكتبة المتنبي، القاهرة، د.ت) جـ١ ، ص ١٥٨؛ ابن شاكر الكتبي، مصدر

سابق، جـ١، ص ٥١١؛ ابن الأثير، مصدر سابق، جـ٢، ص ٤٠٦؛ ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٩٢) جـ٢، ص ٤٩٢ .

(١٣١) انظر على سبيل المثال: د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة: ١٩٩٦) ص ١٨٥ - ١٨٦؛ محمد الخضري: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية: الدولة الأموية (مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة: ٢٠٠٣) ص ١٩٨ . وانظر أيضًا:

Syed Ameer Ali, op. cit., p. 37.

(١٣٢) See: Theophanes, op. cit., p. 468.

(١٣٣) لامنس: مادة «الجابية» في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة العربية (دار الشعب، القاهرة) جـ١٠، ص ٣٧٣ . وانظر أيضًا: Theophanes, op. cit., p. 469, note 3.

(١٣٤) الطبري، مصدر سابق، جـ٣، ص ٣٩٥ . وانظر أيضًا: ابن الأثير، مصدر سابق، جـ٢، ص ٤١٠ .

(١٣٥) الطبري، مصدر سابق، جـ٣، ص ٣٩٦ .

(١٣٦) الأزدي، مصدر سابق، ص ٩٣ .

(١٣٧) انظر ص٧٥ فيما سبق.

(١٣٨) هو سعيد بن عامر بن حِذْيم الجُمَحِي القرشي. أسلم قبل خيبر وهاجر إلى المدينة وشهد خيبر وما بعدها من المشاهد وكان - كما يروي ابن الأثير- من زُهَّاد الصحابة وفضلائهم. وقد تولى حمص في خلافة عمر بن الخطاب، ثم قيسارية وتوفى بها سنة ١٩هـ . وقيل: توفى بحمص واليا عليها. لمزيد من التفاصيل راجع ترجمته في: ابن الأثير: أسْد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق محمد إبراهيم البنا وآخرين (طبعة دار الشعب، القاهرة: ١٩٧٠) جـ٢، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(١٣٩) الواقدي: فتوح الشام، مصدر سابق، جـ١ ، ص ٧٨ . وليس هناك ما يشير إلى قائد الجناح الأيمن.

(١٤٠) الأزدي، مصدر سابق، ص ٩١ . وحول ترتيب خالد لجيشه، راجع: الواقدي، مصدر سابق، نفس الصفحة، وقارن بما في الأزدي، مصدر سابق، ص ٩٠ .

(١٤١) الأزدي، مصدر سابق، نفس الصفحة .

(١٤٢) نفس المصدر، ص ٩١ .

(١٤٣) ضرار بن الأزور الأسدي من بني أسد بن خزيمة؛ قدم على رسول الله ﷺ في العام التاسع للهجرة في وفد بني أسد، واعتنق الإسلام، وكان أحد الفرسان المعدودين، وشهد قتال مسيلمة باليمامة، وأبلى فيه بلاءً عظيمًا، وشهد أجنادين واليرموك. وتختلف الروايات في وفاته، ومما قيل في ذلك أنه توفي بالكوفة في خلافة عمر بن الخطاب. راجع ترجمته في: ابن الأثير: أسد الغابة، مصدر سابق، جـ٣، ص ٥٢ - ٥٣، وانظر أيضًا: ابن سعد، مصدر سابق، جـ١ ، ص ٢٩٢ .

(١٤٤) انظر: الواقدي، مصدر سابق، جـ١، ص ٨٠ .

(١٤٥) الأزدي، مصدر سابق، نفس الصفحة .

(١٤٦) انظر حول ذلك: الأزدي، مصدر سابق، ص ٩٢؛ الواقدي، مصدر سابق، جـ١، ص ٨٩؛ الطبري، مصدر سابق، جـ٣ ، ص ٤١٨ .

(١٤٧) انظر: الأزدي، مصدر سابق، نفس الصفحة .

(١٤٨) انظر: الواقدي، مصدر سابق، جـ١، ص ٩٠ .

(١٤٩) See: Gibbon, op. cit., vol. 5, p. 315.

(١٥٠) انظر: الواقدي، مصدر سابق، نفس الصفحة.

(١٥١) انظر: البلاذري، مصدر سابق، ص ١٢١ .

(١٥٢) نفس المصدر والصفحة .

(١٥٣) ابن عساكر، مصدر سابق، جـ١، ص ٤٨٣ .

(١٥٤) انظر: الأزدي، مصدر سابق، ص ٩٣، ٩٨؛ اليعقوبي؛ مصدر سابق، جـ٢، ص ١٣٤، ١٣٨ .

(١٥٥) الأزدي، مصدر سابق، ص ٩٤ - ٩٦ .

(١٥٦) مرج الصُّفَّر بنواحي دمشق. انظر: ياقوت، مصدر سابق، جـ٥، ص١١٨ . وهو أحد المروج بغوطة دمشق الشهيرة . انظر: الأزدي، مصدر سابق، ص ٩٦ ، هامش ٢ .

(١٥٧) الأزدي، مصدر سابق، نفس الصفحة .

(١٥٨) نفس المصدر، ص ٩٦ - ٩٧ .

(١٥٩) اليعقوبي، مصدر سابق، جـ٢، ص ١٣٩ .

(١٦٠) خليفة بن خياط، مصدر سابق، ص ٨٠ .

(١٦١) البلاذري، مصدر سابق، ص ١٢١ - ١٢٢ .

(١٦٢) الطبري، مصدر سابق، جـ٣، ص ٤١٨ - ٤١٩ .

(١٦٣) C. f., Donner, op. cit., pp. 143 - 145.

(١٦٤) انظر: ياقوت، مصدر سابق، جـ٢، ص ٥٢٧ .

(١٦٥) ابن عساكر، مصدر سابق، جـ١، ص ٥١٤ .

(١٦٦) في حديث ابن عساكر عن معركة اليرموك في عصر عمر يذكر أن الروم لما انهزموا انتهوا إلي مكان مشرف على أهوية فأخذوا يتساقطون فيها وهم لا يبصرون، وسميت تلك الأهوية الواقوصة؛ لأنهم وُقِصوا فيها. انظر: ابن عساكر، مصدر سابق، جـ١، ص ٥٤٤ . وهكذا ارتبطت الواقوصة في الاستعمال بالمنخفض العميق في وادي نهر اليرموك. وفي لسان العرب: «وقَصَ عنقه يقِصُها وَقْصًا: كسرها ودقها». ابن منظور: لسان العرب (دار المعارف، القاهرة: ١٩٧٩) جـ٦، ص ٤٨٩٢ .

(١٦٧) انظر: البلاذري، مصدر سابق، ص ١٢٥ .

***

قائمة المصادر والمراجع

أ- عربية ومترجمة (لم تؤخذ كلمة «ابن» في الاعتبار عند الترتيب):

أبو الفدا (عماد الدين إسماعيل):

- المختصر في أخبار البشر. مكتبة المتنبي، القاهرة (د.ت).

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسين علي بن محمد الجزري):

- أُسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ومحمود عبد الوهاب فايد. طبعة دار الشعب، القاهرة: ١٩٧٠ .

- الكامل في التاريخ. دار صادر، بيروت: ١٩٨٢ .

الأزدي (محمد بن عبد الله):

- تاريخ فتوح الشام، تحقيق: عبدالمنعم عبد الله عامر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة: ١٩٧٠ .

الأصفهاني (حمزة بن الحسن):

- تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء. منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت (د.ت).

البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر):

- أنساب الأشراف، تحقيق الدكتور محمد حميد الله. الجزء الأول. دار المعارف، القاهرة: ١٩٨٧ .

- فتوح البلدان، مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان. دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٩١ .

بول (Fr. Buhl):

- مادة «تدمر» في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة العربية، دار الشعب، القاهرة، (د.ت)، جـ٩ .

- مادة «تيماء» في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة العربية، دار الشعب، القاهرة (د.ت) ، جـ١٠ .

جب (H. A. R. Gibb):

- مادة «أجنادين» في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة العربية، دار الشعب، القاهرة (د.ت)، جـ٢ .

جوزيف نسيم يوسف (الدكتور):

- تاريخ الدولة البيزنطية. مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية: ١٩٨٤ .

ابن حجر (أحمد بن علي العسقلاني):

- الإصابة في تمييز الصحابة . دار الكتاب العربي، بيروت (د.ت).

ابن حزم (علي بن أحمد بن سعيد):

- جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى، تحقيق الدكتور إحسان عباس والدكتور ناصر الدين الأسدي ومراجعة أحمد محمد شاكر. دار إحياء السنة، لاهور (د.ت).

حسن إبراهيم حسن (الدكتور):

- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة: ١٩٩٦ .

الحموي (شهاب الدين إبراهيم بن أبي الدم):

- التاريخ الإسلامي المعروف باسم التاريخ المظفري. الجزء الأول، تحقيق الدكتور حامد زيان غانم زيان. القاهرة: ١٩٨٥..

الحموي (شهاب الدين ياقوت بن عبدالله):

- معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي. دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٩٠ .

ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد):

- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر. دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٩٢ .

خليفة بن خياط :

- تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق الدكتور سهيل زكار. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق: ١٩٩٣ .

ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع) :

- الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت (د.ت).

سوردل - تومين (J. Sourdel - Thomine) :

- مادة «البلقاء» في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة العربية، دار الشعب، القاهرة، (د.ت)، جـ٨ .

الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) :

- تاريخ الرسل والملوك (المعروف بتاريخ الطبري)، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة: ١٩٧٩ .

ابن الطقطقي (محمد بن علي بن طباطبا) :

- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بعناية محمد توفيق الكتبي، المطبعة الرحمانية ، القاهرة: ١٣٣٩هـ .

ابن عساكر (الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله) :

- تاريخ مدينة دمشق. الجزء الأول بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، دمشق: ١٩٥١ .

فازيلييف (A. A. Vasiliev) :

- «الإسلام وبيزنطة»، مقالة نشرت في كتاب : الإمبراطورية البيزنطية، تأليف نورمان بينز Norman H. Baynes، تعريب الدكتور حسين مؤنس والأستاذ محمود يوسف زايد. طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة: ١٩٥٠ .

الكتبي (محمد بن شاكر بن أحمد) :

- عيون التواريخ، جـ١ ، تحقيق حسام الدين القدسي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة: ١٩٨٠ .

ابن كثير (الحافظ إسماعيل بن عمر):

- البداية والنهاية، تحقيق الدكتور أحمد أبو ملحم وآخرين. دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٨٥ .

لامنس (H. Lammens):

- مادة «الجـابية» في دائرة المعارف الإسـلامية، الطبـعة العربيـة، دار الشعب، القاهرة (د.ت)، جـ١٠ .

محمد الخضري:

- محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية: الدولة الأمـوية. طبعة مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة: ٢٠٠٣ .

المسعودي (أبوالحسن علي بن الحسين بن علي):

- التنبيه والإشراف . ليدن : ١٨٩٣ .

ابن مسكويه (أبو علي أحمد بن محمد):

- تجارب الأمم. ليدن : ١٩٠٩ .

مصطفى طلاس:

- سيف الله خالد بن الوليد. الطبعة الأولى . دمشق : ١٩٧٨ .

ابن منظور (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم):

- لسان العرب. دار المعارف ، القاهرة: ١٩٧٩ .

الواقدي (محمد بن عمر بن واقد):

- فتوح الشـام، مراجعة طه عبد الـرءوف سعد. دار ابن خلدون، الإسكندرية (د.ت). هذا الكتاب ينسب للواقـدي، ولكن الواضح من أسلوبه وطريقة عرضـه أنه لكاتب متأخـر اعتمد في كـثير من مـادته على روايات الواقدي رغم تدخله في هذه الـروايات. والكتـاب - مع ذلك- لا يخلو من مـادة علمية تلقي ضوءًا على بعض القضايا المهمة في أحداث فتوح الشام.

- كتاب المغازي، تحقيق الدكتور مارسدن جونس. عالم الكتب، بيروت: ١٩٨٣ .

اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر) :

- تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت: ١٩٩٢ .

***

ب- أجنبية :

Ameer Ali, Syed,

- A Short History of the Saracens. London 1961 .

Donner, F.,

- The Early Islamic Conquests. Princeton 1981.

Gibbon, E.,

- The Decline and Fall of the Roman Empire. New York 1910.

Glubb, J. B.,

- The Great Arab Conquests. London 1963 .

Hitti, Ph. K.,

- The Arabs: A Short History London 1960 .
- History of the Arabs. London 1970.
- History of Syria. London 1957 .

Irving, W.,

- Mahomet and his Successors. London 1985.

Kennedy, H.,

- The Prophet and the Age of the Calipates. London 1986.

Michel le Syrien,

- Chronique de Michel le Syrien, ed. and trans. J. B. Chabot. Paris 1899 - 1904.

Muir, W.,
- The Caliphate: Its Rise, Decline and Fall. Edenburgh 1924.
Saunders, J.,
- A History of Midieval Islam. London 1965.
Theophanes,
- The Chronicle of Theophanes Confessor. Translated with Introduction and Commentary by Cyril Mango and Roger Scott. Oxford 1997.
Vasiliev, A. A.,
- History of the Byzantine Empire. Wisconsin 1952 .

***